دار الشروق

جمال الغيطانى

متون الأهرام



متـــون
الأهـــرام

الطبعــة الأولــى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

الطبعـة الثانيـة
طبعـة الشروق الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهـرة : ٨ شـارع سـيبويه المصـرى -
رابعـة العـدوية - مـديـنـة نصـر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فـاكـس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email dar@shorouk.com

جمال الغيطانى

متون الأهرام

دار الشروق

مَتنٌ أول

تَشَوُّف

عَرِفَـهُ أولَ سعيـه، غيـر أنه لم يُحِط بخَبَره إلاَّ بعـد التمـام. وما بين البـداية والنهاية اسـتغـرق الأمر سنوات طوالاً مـاتزال أصداؤها سـارية. ممتدة، كـذلك وجودُهُ. حتى وإن أصبح غـير ماثل مع تمام اليقين بانـتفاء إمكانية اللقاء والمخاطبة.

رغم ذلك يثقُ أنه هناك، يمكنه أن يمضـىَ فى أى وقت فيلقـاه، يَفِدُ على ذاكرته فى أويقات متباعدة، مختلفة، يَمثُلُ بقوة حتى ليكاد يَلْمَسَهُ بيديه ويسـمعه بأذنيـه، إلاَّ أنه وثيق الصلِة بمواضع معـينةٍ لا يمرّ بها إلاَّ ويجىء.

«لا تستدعى الذاكرة لحظةً ما إلاَّ مقترنةً بموضع ما».

لحظاتٌ من النهار الشتوىّ أو الخريفىّ أو الصيفىّ، يبدو خلالها مبتسمًا بهدوء، قامته الممتلئةُ، مستـقيم الظهرِ، بارز الصدرِ لم يغير جلسَتَهُ طوالَ أعوامٍ، كذا وجهة عينيه، ونظراته، حتى عند حديثِه إلى آخرين، أما تعبير الدهشةِ فمُبادرٌ دائمًا، كأنه يُطالعُ أمرًا عجبًا للتوّ.

مـواضع شـتى ارتبطَتْ به، أهمـها جـامع الأزهرِ ومـا يتـعلّقُ بِه، الرصيـفُ المحاذى لباب المـزيّنين، المؤدّى إلى الرَحبـة الفسـيحـة حيثُ الصحْنَ وإطارُ الأعـمدة والمزولَة فى الجـهة الغربيـة، والأروقَةُ المشَـرفَةُ والظّلال ومهابةُ الشيوخِ الماضين، وأنفاس الصالحينَ الذين لزموا وعشِقوا بعد أن عرِفوا.

«يستحيلُ العشقُ بدونِ معَرِفة».

أما اللحظاتُ فَتَمُتُّ إلى الصبا، إلى زمنه الأول، عندما كانَ كلُ شيء مُقبلاً والتطلّع إلى الأمامِ غالبٌ، عـام. إلى ذلكَ الرصيف جاء صبيًا دون العاشـرة، عَبَرَ مـيدانَ الحسين إليـه، لم تكن ثمة حواجـز تقسم الطريق. المكان متـضامّ وقتشـذٍ وأعمقُ أُلفةً. قربه يـنتهى خطٌ للترمواى رقم تسـعة عشر، واجهة المركبات مقطبـة حزينة. يرمقها فى موضع قَصِيٍّ من ذاكرته المثقَلَة الآن، طلاءٌ أصفر فاتح، عجلات سوداء، مصابيحُ عميقة.

كيف اهتدى إليه؟

لا يمكنهُ التعيين أو القَطعُ، ربما أثناءَ تجوُّله مع صَـحبه بعدَ الخروجِ من المدرسة الإعـدادية القريبـة، كانوا يَشْـرُعُون فى اسـتكشافِ الدُنيـا عندما يعبرون مَيدانَ الحسينِ أو ميدانّ بيت القاضى، أما ميدان العتبةَ، والأوبرا، فلا يجرءون إلا بصُحبةِ آبائهم وذويهم، أماكـن كانت قريبة البُعد بمقاييس الوقتِ المنقضى.

«الأمرُ دائمًا نسبيٌّ».

لو قارنَ مـا حَلّ به من دهشةٍ بمقـاييس حاضره، لَـعَادَل عبـوره شارع الأزهر قديمًا وصولُـه القُطَب الجنوبيّ الآن، أو حوافّ سيبـريا، أو مضيق بيرنج. بل إن عبور قبوٍ غامضٍ لَيُثـيرُ فيه من الرِعْدَةِ والتَوْقِ والحذر، مالا تقدر قُوَى شتّى أن تَبعثَه.

«للبدايات دائمًا شأنٌ عظيم، والبداياتُ لا تتكرر أبدًا».

البـداية لحظة، تحوى المكـان والزمان، بعضُ النقـاط يُمكنُ تَحـديدُها والأُخرى تتوهُ فى إجمالىّ البِنْيَـة الغاربة، لذلك لا يُمكن تحديدُ يومٍ معينٍ لرؤيةِ الشيخِ تُهَامى أولَ مرةٍ، كيف اهتدى إليه؟ ما من إجابةٍ مؤكّدة، غير أنه من أوائل الذين اتّصل بهم وتعامَلَ معهم مباشرة فى سنّه المبكرة تلكَ. كان يَعرضُ الكُتُبَ القـيمة يرصّها بحذاءِ الجدار الرمـادىّ العتيق، عناوينَ مخـتلفة: فِقـه، تفاسـير، تاريخ، روايات طُبعت فـى سنواتٍ من القرن الحالى أو الماضـى، يقعد فـوق كُتبٍ مـرصوصـة، مربوطَة بحَبْـلٍ متين. تتلامَسُ راحتا يديه بين رُكبتيه، يكْتُبُ الأسعار بقلمٍ رصاصٍ على الأغلفة الخلفية، لا يُجادل، لاَ يُناقش. لكن.. إذا اقتـرح المشترى سعرًا أقلّ وبدا ذلك نتيجةَ حـاجةٍ وانعدام قُدرةٍ فإنه يُومئ فقط، يَهَبُ الكتـابَ مُقابِلَ ما يُمكنُ دَفعُه، لكنه لو لمحَ استِهانةً أو استهتارًا ما فإنه يتطلّعُ بقسوة.

«يُولَدُ النهارُ مِنَ الليلِ، ويَخرُجُ الليلُ مِنَ النهارِ».

كان يرقُبُه صامتًا. بعد تأكُّده من اهتمامه وجدّيته رغمَ صغرَ سنّه بدأ يقترحُ عليـه، يَدُلُّه. كان يتناولُ الكتابَ ويقعُـدُ عندَ الطرفَ الآخر، لا يَقَوُمَ إلا بعد الانتهاء، كَثيرًا ما استـغرقَتُه العوالُم المتخَّيلةُ، فلا ينتبهُ إلاَ عند اضمحـلالِ الضوء وبدء الغروب. اقتراب الرجـال المكلَّفين بإشعالِ المصـابيح المرتفـعـة المطـلة على الطريق، يَسنُدُونَ الـسـلالَم النحـيلة، يصعـدون بسرعةٍ فـوقها، بَيدهمَ عـصىّ طويلة تنتهى بما يُشـبهُ الكُرةَ،

تابَعَهُم يوميًا باهتمامٍ، ولم تقع عـيناه على مصباح إضاءةٍ فى أىّ مدينةٍ نزلهـا، أو أى جـسرٍ عَـبَـرَه، إلا ويتذكّـرُ على الفـورِ مـلامحَ أولئكَ المجهولين، العابرين.

«إنها للزيارةِ، ليسَت للإقامةِ»

تلك اللحظة لا تَحُلّ عندَه، إلا ويستعـيدُ جلستَهُ وابتسامتَـهُ الغامضةَ، واتجاه بصره صَـوبَ الغرب، كأنُه ينتظرُ خبرًا أو يتوقّعُ قُـدُومًا ما من تلكَ الجهـةِ، أو يُتابعُ أمرًا لا يعـرفهُ إلا هو. فى تلك الأيام كانَ فـضاءُ المدينة صافيًا، مُرهَفًا، وكان الـواقِف فوقَ جبلِ المقطمِ يُمكنهُ عدُّ حجارةِ الأهرامِ إذَا أُوتى قوة البصرِ.

الأهرام.....

مَقصِـدُ الشيخِ تهامى، لُبُّ اهتـمامه، بُؤرَةُ تفكيره، سَـبَبُ وجوده فى المدينة. فى هذا الموضع، من مكانه فـوقَ الرصيفِ كَـأنَ يطوفُ بالأهرَام، يُدقّقُ معالَمه. رغم قيامِ عمـاراتٍ عديدةٍ عَبْرَ الفراغِ الفاَصل، تَحُولُ دونَ وقُوعِ عينيهِ على البِناءِ الشاهقِ.

«أحيـانًا ترى البصـيرةُ مـالا يَراهُ البَصَر، وأحـيانًا يَرىَ البَـصَرُ مـالا تُدركُهُ البصيرةُ».

لَكَم رأى موجودات شتّى رغمَ بُعدها وخرُوجِها من دائرةِ النظر، ولَكَم

غابَتْ عنْه محسوساتٌ طالَ مُثولُهُ أمامَها، ليس هذا حالُهُ بمفرده، لم يُختَصّ بِه. إنما يشمَلُ ذلكَ النوعَ الإنسانيّ كله.

قالَ إن الواقفَ فوقَ مئذنَةِ الأزهرِ الوسطَى يُمكِنهُ الإحاطةُ بأدَقّ رؤيةٍ مُمكِنةٍ لأهرامِ الغَربِ.

وهل رأى إنسانٌ. أو أخبر نصٌ قديم عن أهرامٍ فى الشرق؟

الوضوحُ الجَلىّ يكونَ مرتين، عند الشروقِ والغروبِ رغمَ قُرب مئذنة مسجد محمد بك أبو الدَهَب حتى يُمكنُ للواقَف بشُرفَتها أن يتبادَلَ الحَوارَ بدون رفعِ الصوتِ عاليًا معِ الآخرِ المطل عبرَ مئذنة الأزهر، إلا أن الأهرام تبدو مُغايرةً. لسنواتٍ طَالعَ كافةَ التفاصيلِ فى الأوقاتِ الخمسة السابقة على الأذان، ثلاثَ مراتٍ فى وهج الضوءِ وسطوعه ومرةً مع اكتمال الَليل وحلوله، ومرة مع وهنه وقرب زواله. خَمس مرات يوميًا، يصعدُ، السلم الحلزونىّ الذى لا يتّسعُ إلا لشخصٍ واحد. مازالَ كثيرونَ يتحدثونَ عن قوةِ صوتِه، ونفاذه إلىِ الآذان القَصيّة، وفيضه عبر الفراغات الشواسع، حَدّثَ عن رؤيته الأهرامَ واختلاف ظهورَهَا عبرَ سَاعاتِ الليلِ والنَهار:

«هل كانَ بإمكانِك مشاهدتَها ليلاً؟»

يتخّللُ لحيته شبه المثلثة. أصابعه نحيلة، طويلة، الأهرامُ لا تغيب عنهُ أبدًا، إذا لم يطالعها بالبَصر، فإنه يشهَدُها بقلبه، وبقدر التركيزِ يكونُ

الوضوحُ، سواءً كانَ الوقتُ غَسَقًا أو فجرًا، ومن يثابر، مَن يُجالد الوَهَن والضَجَر واليأسَ فإنه يرى عجبًا.

«ما يبدو واضحًا في حينٍ، يَغمُضُ في حينٍ آخر، وما يكونُ غامضًا في وقتٍ، ينجلي في وقت.»

لم يُصَرّحْ بأكثَر من ذلك فيما يتعلّقُ بالرؤية وتسديد البصرِ، لم يَقُل: لماذا التحق بالأزهر، لم يُفصِّل.. أىّ عِلمٍ دَرَس؟ أينَ أقامَ؟ فى أىّ رِواَق؟

كان يتدفّقُ باللفظ، بالجُملة إثْر الجملة إذا تعلّقَ الأمرُ بالأهرامِ، لكنه يَضِنُّ، يشحُّ إذا حادَ الحديثُ عن شَخصه، أثَارَ صمتُهُ ودَفقُهُ الرغبةَ فى التخمين ومحاولة الوقوف على جوهرِ الأمرِ، لم يكَفَّ عبرَ مراحلِ معرفته به، استنتجَ أُموراً بعضُها أَصبحَ معَ الزمن يقينًا، من ذلك تأكده أنه التحقَ بالأزهرَ من أجل أمر يتعلّقُ بالأهرام، ومنها أنهُ لم يُتمّ دراسَتَهُ لغرضٍ يتّصلُ أيضًا بالأهرام، وفى كلا الحالين كان مأمورًا. ليس بوسعِهِ الرفضُ أو الاختيارُ.

«السائلُ جاهل، لكن.. هَل المجيبُ عالِم؟»

لا يمكن القَطعُ. أحيانًا لا يكونُ بوسعِ المرء إلا التساؤلُ والتيهُ عبرَ استفسارات لا نهايةَ لها، هل قصدَ الالتحاقَ بالأزهر للاطلاع على مخطوطات محفوظةٍ بالخزانة الأقبغاوية؟ أو المكتبة الطيبرسية؟ أو فى داخل

أحد الأروقة؟ لـكن. . ماذا حال بينَهُ وبينَ تلك الأوراق أثناء إقامـته على مَقرُبَةٍ من الأهرامِ؟ يمكن لأى إنسانٍ أن يقصدَ مكتباتِ الأزهرِ ويَطّلعَ على مـا شاءَ، إلا إذا كـاَن ثمـة نبأ بمخـطوطٍ لا يُمكنُ إخراجُـهُ إلا لمن يُقـيمُ وينتَظم؟ هل يكمُنُ قَـصدُهُ داخلَ المئذنة؟ فـتوسّل بإتقانَه الأذانَ، وجـمال صوته وقـوةَ نبره وعـذوبة ترجيـعه، حـتى إن كثـيرين اعتـادوه وانتظروا صعوده، وتَطَلّعـه صوب الغربِ ورفع يديه لتُلامِسَ أصـابعُه أطرافَ أُذنيهِ ورفعه الأذان.

هل كان يَقصدُ التَطلُّع إلى الأهرام؟

لو أرادَ مكانًا مرتـفعًا لاتّجـهَ إلى المُقَطّم، كانَ يُمكنهُ مُـلازمَةَ مسـجدِ الجيوشى عـندَ الذُروَة، أو مسجدِ الأسبـاطِ السبعة. هل كَـان يبحثُ عن خبيئةٍ ما؟

«مَن يُثابِرُ يَصل، ومن يَعبُرُ حاجزَ الوقتِ تكتمل لهُ الرؤيةُ.»

عندما عَرِفَهُ كانَ يَلزَمُ الرصيفَ قُربَ بابِ المزيّنين الرئيسى، يحتفظ تحتَهَ بتلكَ المخطوطاتَ العتيقة ذات الأغلفـة الجلدية السميكة، لم يُفارق المكانَ إلا مرتين، أيامَ العـيدَين. . الكبير والصـغير، عندما يُحـيطُ رجالُ الأمن بالموضع كُله قبل صلاة العيد بيـومين حرصًا على الزعيمِ الذى لم يخلف صَلاةَ العـيدَ بمسجـد مَولانا وسـيدنا الحسين. الحقُّ. . إنهم عـاملوه برفقٍ وَهَيبـة، لم يقسُوا عليـه باللفظ أو النظرِ كمـا يفعلونَ مع الباعـةِ الجائلين

والمتسكّعين، المتـردّدين. كان يجمعُ كُتُبَـه ويمضى فى صمتٍ إلى مكانٍ لا يعرفه أحد.

لم يَستفسر. وإن كانَ الرصيفُ الخالى منهُ يُثيرُ وَحشَةً مُبكّرةً سَيَظلُّ لها أصداءٌ وترجيع، دائمًـا يتساءَلُ: أى مرحلة عنده لقيه خـلالها؟ أىّ محطٍ فى طريق سعيه إلى الإحاطة بالأهرام.

«بُلوغُ المراحلِ نسبىّ.»

لم يُفْضِ إليه بالغَرَضِ من مجيـئه إلى القاهرة إلا بعدَ سنوات، بعد أن عَمُقَ التقارُبُ، ودَنَتَ الكينونتان، حَدّثَهُ فقاَلَ إنهُ مغربىٌ، تمتدّ أصُوله إلى قبـيلة تقع جنوب الصَحْـراء، من هُنا سُمـرَتُه الغامقـة وشَعـرهُ الأكرت، الجَعْدُ، وِلدَ فى مدينة قُربَ الجبالِ، وإن كانت تقع فى واد حصين، بحيث يبلغُ الإنسانُ مَشارفـها، ويكونُ على بُعد أمتارٍ قليلة لكنه لا يرى مـبانيها وطرقاتها وميادينَها ونواصيها إلا عند دخوله إليهَا فعلاً.

«كلمةٌ، أو نظرةٌ، أو إيماءة.. ربما تُحيدُ بمصيرٍ وتُغيِّر مسار حياة.»

منذ طفولته اختلفَ لطلبِ العلوم والحكمة والأدب إلى شيخ طافَ بلادَ المشـرق، ودخلَ أقطار الزنج، صَحِـبَهُ حـتى صدر شـبابه، وعندمـا عَلمَ بخروج ركب الحجّ قوىَ عليـه الحنينُ فشاوَرَ شَيخَـهُ. باركَ عزمَه، ورسخ من أمره. خـرجَ طاويًا المراحلَ، ليس بنيّتـه إلا أمر الحجّ والزيارة. وصلَ

أرضَ الحجازِ مُلبّيًا. مُحْرِمًا، طافَ وسعىَ وشربَ من زَمزَم، وقفَ فوقَ عرفات ودعا. أفاضَ من حيثُ أفاضَ الناسُ. وبقى مُلازمًا له. مُصاحبًا. لحظةَ وقوعِ بَصره أوّل مرةٍ على الكعبةِ الملتحفة بردائها الأسود. ومشهد القومِ المتجّهين صوبَ المُزدَلِفة، أرديتُهُم البيضاءُ فى غميقِ الليل، والشعاب المؤدّيةِ الغاصة بهم، والجبالِ الصّماء المُشرفَة. أما مُثُولُه عندَ ضريحِ المصطفى فلُه شَأنٌ آخر. رَجِعَ مع جَماعتِه. وعندماَ حَلّ بوادى زمّ بعد غيبة، وقبل التماسِ الراحة سعى إلى شيخه الحكيم ليقُص عليه ما كانَ من أمره. بعد أن أصغَى طويلاً سأله فجأةً:

حدِّثنى عن الأهرامِ وما رأيته منها؟

تلَجلَجَ، تردّد:

ما عندى من المعاينةِ ما أروِيه، ولا أقدِرُ أن أسُوقَ حديثاً صحيحاً عنها.

أشاح بوجهه قائلاً:

أَخْسس بهمة لطالبِ عِلمٍ وحكمة، لا يتشَوّقُ، لا يتشَوّفُ إلى معاينةِ ما يَكْمُنُ من عَجَبٍ.. ألَم تَعبُر القاهرةَ مرتين؟

أومأ مُجيبًا. قالَ الشيخُ:

ألم يكُن بينَكَ وبينها إلا ركضة راكب، أو دَفْعَةُ قارب؟ إذا لم يكُن ذلكَ سُقوطُ همّةٍ، فماذا نسميه؟

ثم أدارَ ظهرَه إليه، وأطرَقَ، فلم يكُن بوسعه إلا الانصراف والمغادرة،

لكن . . منذُ تلك اللحظةِ لم يَطب له مُقامٌ، ولم تلن له ضَجْعَة، أدركَ أن مُقامَه في مَسقَط رأسه انتهى، وأن سنواتِ استقراره ولّتْ، وأنُه يجب أن يرحَلَ.

«كُل شيء من لا شيء.»

فارق وادى زمّ للمرة الثانية، خروجٌ مغاير. مختلفٌ، الأولُ له مدىً ومراحلُ معلومة، والثانى سَعْىٌ إلى مجهولٍ غير مُدْرَك، فى الأول دَافعٌ نابعٌ من أغوارِهِ، فى الثانى كأنه مُرغَم، لكنه راض أيضًا وعنده تَحَدّ، لابدّ أن يرجعَ إلى شيخه بما لم يسمَعْهُ من قَبلُ، مالم يعرفهُ السابقون، حتى أولئك الذين عاينوها، ودقّقوا وَصفَها فى كتَاباتهم، هكذا سَعَى، مرّ بقُرىً ،ومدن لم يعرفها من قَبلُ ونزلَ ضَيفًا على مَن يجهَلُ، رحّبَ به من لا يعرفُ. وصلَ بَر الجيزة، عاين أهرامات عديدة. رآها من مسافات متَفاوتة، فى لحظاتٍ مختلفة، لم يحدِّد شيخُهُ هَرَمًا بعَينه، سألَ عنها كلّها. تَعَلّقَ بالأكبر، لم يُفارقه منذُ وصولهِ إلى نزلة السمّان، القرية الصغيرة التى يسكنُها أعرابٌ قَدَامى يطوفون بالأهرام سَعيًا إلى الرزق ومنافعَ أخرى، عندما جاءَ لم يكُن هناك أىُّ مناطق سكنية قريبة. كان الشارعُ العريضُ، المزدحمُ، المؤدّى، مُجّردَ دَربٍ أو جسرٍ أو طريق مَهّدَتْه الأقدامُ والقوافلُ، على جانبيه أراضٍ مَزروعة، تتخلّلها بيوتٌ صغيرة، ونَفَرٌ قلائلُ يَبدُونَ فى الفراغِ كعلاماتِ الكتابة! حضورُ الأهرامِ مُهَيمنٌ، قوىّ، يُؤَطّر الموجوداتِ. لم يكنُ مُزَوّدًا بأىّ عنُوان. لا يقصدُ شَخصًا

مُعَيّنًا، أو جهةً مُحددة. أو مؤسسةً ما، كان على بابِ الله، لذلكَ لم يَشغَله هذا قَطُّ. لم يؤرّقه، كانَ لديهَ يقينٌ داخليٌّ أنه لن يفتقد موضعًا يحتمى فيه من وَحشَة الليل، وقسوة الانفراد، لن يعْدَمَ لُقمةً تكفيه، كان مدفوعًا، غير عابئ بشيءَ إلا إلمامه بكُلَ ما يمكن أن يُعينه على معرفة الأهرامِ، والعودة فى يومٍ ما، شَهرٍ ما، سَنَة ما، لحظة معينة يَمْثُلُ فيها بينَ يَدَيْ شَيخه، وفى الهدوء الذى يَلُفُّ وادى زمّ ليلاً يقصّ عليهِ ما أحاطَ به علمًا. كان يَقينه الذى يَصعُبُ وصفه أو إدراكُه أن الأمرَ كلّه لن يستغرقَ وقتًا طويلاً، وأنه سَيَبلُغُ اليوم الذى يشُدُّ فيه الرِحالَ إلى الغربِ، إلى العودةِ. لن يتجاوزَ الأمرُ كلُهُ سَنَةً!

«لا يدرى الإنسانُ أنهُ مُسافرٌ دائمًا، إنْ فى حركته أو ثباته.»

عندما نزلَ القريةَ الصغيرةَ القريبةَ من قدمى أبى الهَولِ رأى المئذنةَ البيضاءَ المرتفعةَ فوق البيوتِ كافةً، دالّةً إلى المكان الذى يُمكن للجميع دُخولُه بدون دعوةٍ أو ترتيب. فى اللحظات الأولى لم يُثر ظهوره فضولاً، كانوا يؤدون صلاتهم، بعد انتهائهم مضى إلى الإمام، نحيلاً، واثق الوجود. على وجهه رضًا وقبول.

غريب؟

أومأ مجيبًا، لم يستفسر عن اسمه أو الجهة التى قَدمَ منها أو مقصده. هكذا تَقضى أُصولُ الضيافةَ المتوارثَة، ثَلاثةُ أيام لاَ يُسأل فيها القادمُ عن شىء، ثم تُقَدَّم إليه أصول الخدمة، وبعدَ الثالث يُمكنُ الاستفسار عن

الجهة، والقـصد، الشيخُ تهامى لم يَلزَم الصمت، أفضَىَ بخَـبره. قال إنُه طالبُ علم وعنده اهتـمام بالنـجوم، وفى بلده المغـربى مَنْ عَلَّمَهُ أسـاس الصلةِ بين الأهرامِ والفضاءات القَصيّة.

«الوافدُ من بعـيدٍ فى نظر القَوم غريبٌ، وهُم بالنسـبةِ إليه كذلكَ، فـالكافةُ غربَاء.»

لم يُطَمئنهم إلا بشـاشَةُ الإمامِ وترحيبُـهُ به. حدث منذ أربعينَ سنة أن ظهرَ غـريبٌ وأقام بالمسـجد، وفى الليلة الرابعـة فُوجئ القـومُ به يُحاول التسلُّلَ هربًا بعد خلعه المشكاوات الثلاث التى علّقـها الظاهر بيبرس بنفسه منذ سبعـمائة سنة عندمَا جَاءَ لرؤيةَ الأهرامِ، اعتادَ الأهالى إيقـادَ الشُموع دَاخلَها ليلةَ المولد النبوىّ الشريف لا غيَـرَ، لا الخَفيرُ، ولا خادمُ الجامع، ولا سائرُ الأهالى نسوا ذَلك، بسترٍ من الله وتوفيـقه كَشَفوا أمره. أمسكوا به لحظةَ تأهُّبه للهَرَب، إنهم يَحـذَرون الغرباءَ لأسباب أُخرى منهـا اعتقاد رجالِ الحكومـة بوجودِ خـبايا تحتَ البـيوت، ومـداخل سريةٍ إلى مـقابرَ فرعونية لم تُكتَشَف بعدُ، لذلكَ كـثرَ بَثُّ العيونِ ورَصدُ الآذان، لم يُهدئ خواطرهم إلا إقبالُ الإمام عليه وكأنه يعرفُه، أو كانَ يتوقّعُ قُدُومَهَ، حُلولَه بينَهم، والحقـيقةُ أنه بقـدر ما كانَ الشـيخُ تهامى يتطلّع برَهبـة إلى القوم باعتبارهم الأقـربَ إلى أسرارِ الأهرام. بقَدر ما كانوا ينظرونَ إليـه بخَشية وإجلال، هو القادمُ من المغربِ الأقصى. حـيثُ العلومُ الغامضةُ، والقَدرةُ على النفاد إلى الحُجُبِ غير المرئيـة، لم يُقلقهم إلا أنُه بمفرده، أعزب، لم

يعتد أهلُ النزلَة على إقامة مـثله بينهم، إذ يُصبحُ مَصدرًا للقلق، للتوتر، للحـذَرَ الدائم، صحـيحٌ أنهم يتَحـدّثون إلى أجـانب من كُلّ جنسٍ وملّة يُؤَجّرون جمالَهم ودَوابَّهم ويعرضـونَ مَهاراتهم فى تَسلُّق الأهرامِ أمامَهم، بينهم مَن يُتقنُ عَـشرَ لُغات أو أكثَر باللسـان فقط ولا يُجيد كتـابة اسمه، لَكَم حيّرتَه خـبراتُهم، خاصّةً قدرتُهم على الصـعود السريع إلى الذروة، إلى تلكَ النقطة التى تنتـهى عندَها الأحـجار كلها وتبـدأ اللانهائيـة التى يَصعُبُ إدراكُها.

فى خُلوته، سـواءً خـلال السنوات الـتى أمـضاهـا على أطراف نزلة السَـمّان أو رواقِ المغـاربة بالجـامع الأزهر. أو فـوقَ الرصيفِ المحـادى، يستعـيدُ ملامحَ الإمامِ فـيُوقنُ أنُه كانَ مُدركـًا لهدفه، مُلمًا بغـايته، ينطقُ بذلك ما يُصاحب وَجـهه وملامحه وابتسامـته وهدوء ظاهره، الغريبُ أنه لَم يذكُرُه مرةً إلا وأدركَهُ حَنينٌ دامع.

«البقاءُ فى الفَناء، والفَناء فى البقاء.»

اسـتَقَـرّ فى كوخ من خُـوصٍ وجريد نـخلٍ عند حُدود النَزلَة، قُـرب الطريق المؤدّى إلى أبى الهول، لم يُفارق بَصَـرُهُ الأهرامَ قدرَ الطاقة، حتىَ ساعـةَ نَسخه الخطابات أو عـرضِ الحالات التى يُمليهـا عليه أهالى النَزلةَ الذين لا يُتْقنُون القـراءةَ أو الكتابةَ. كثيـرًا ما يمر الكبار والصغـار بكُوخه فَيجدونه مـفتوحًا، مُباحًـا، لم يُغلق بابَه قَطّ. لا ليلاً ولا نهارًا، لم يكُنَ لديه ما يخشى فقده.

«ما يكونُ قَصيًا فى البداية، يُصبحُ قريبًا بحُكم الوقت وقانُون المُدَّة.»

ثلاثة شـهور كـاملة رنا خلالهـا إلى الأهرام، خاصـةً الأكبـر، هابَ الاقـتراب، اكـتَفَى بالـنظر من موضع قـعـوده أمام الكوخ، رأى البُنيـانَ العجيب عـبر ساعاتِ النهـار كُلِّها. حَفظَ حَركَةَ الظـلال، تَعَاقُب الضوء على المستويات المختـلفة من البناء. ملامسةَ أشعة الـشمس على الأحجار الضخمة، المختـلفة فى أوضاعها، المُتفقة، تلك الدعـائمُ المستطيلةُ الموحيةُ بمدَخَلٍ مُغاير لذلك النقْبِ الذى فتحه عُـمالُ الخليفة العباسى المأمون زمن قُدُومه لجمع الثروة، يُقَالُ إن رجالَهُ عثروا بالداخل على مقدارٍ من الذَهَب يُوازى قيمةَ ما أنفقَ على فَتح الثـغْرة، لم يعرف القوم مدخَلاً آخَرَ، لكنه أكّد أنهُ بمـتابَعة الـنظر، وتَدقيقِ البَـصر واقـتفاء دَرَجَـة انعكاسِ الشُـعاع واختلافه من موضع إلىَ آخـر كانَ على وشكِ تحدَيدِ مدخلين على الأقلِ لولا وقوع مالا يمكنهُ ذكرهُ أو التلميحُ حتى إليه.

«بالمداومة تقعُ الإحاطة، شرطُ الالتزام.»

قال إنه بعدَ مـرورِ مقدار غير هَيِّن، اطَّلَعَ على الكتابةِ القـديمة المحُوّة فى الظاهر، ذَكَرَ المؤرخون القُـدامى ومنهم المقريزى فى خطَطه أن الأهرام كان مغطى بكُسـوةٍ وردية عليها كتابةٌ بالقلمِ الغريبِ، ثم اَخـتَفَتْ، لكنها لم تُمْحَ، كانَ ظهورُها مشروطًا بأمورٍ مُعينة، أهمها القُدرة على التدقيق، وإدامة النظر فى أوقات مُـحددة، لكن لصعوبة تعيـينها وَجَبَ النظرُ طولَ الوقت. فى لحظة ما يبدأ ظهورُها، خفيفًـا، هيِّنًا، كأنها قادمة من أعماق

الماء حتى إذا بلغَت السطح توهَّجَتْ بلألائها الذهبيّ، تمامًا كسابق عَهدهَا الجليّ عندما كانَ يمكن رؤيتها من مسيرة سبع ليالٍ، رآها، تمكّن منهاَ. ألَمَّ بهَا جُملةً وليسَ تفصيلاً، فالمدى فَسيحٌ، لا يُمكن بلوغُه فى عُمر أو اثنين لكنه كتبَ رسالةً صغيرة في شروط ظهورها، وما يحبُ اتباعُهُ أودَعَها متاعَهُ القليل، أكّد أنه دَرَسَ أوضاعَ الشمسِ، وتعامُدَ أشعّتها على الذُروَة، تلك النقطة التى ينتهى عندها البناءُ ومنها يبدأُ أيضًا، عندَ انتصاف النهار فى أىّ يومٍ من الفصول الأربعة، يكونُ ما بينَ القُرصِ الملتهب وتلك النقطة خَطٌ مستقيم، صريح كحَدّ السيف.

«مالا يُدركُ بالنَظَر، يَنفُذ إليه القَلبُ.»

كُلّما ألَمّ بجديدٍ ظهرَ لهُ آخَر. وكُلّما ظَنّ أنه جَمَعَ عن الأهرام ما سيُبهِرُ به شيخَه أقصَى المغرب، ظهرَ لهُ مثيرٌ حَدا به إلى البقاء. مَعارف شتّى صارَ إليها وانتهَتْ إليه، كانَ يُصغى ويستفسرُ ويرنو نهارًا ويختلسُ البَصَرَ ليلاً، وتُواتيه فى عُمق المنامِ حُلُولٌ شتَى شَغَلَتْه زمنًا طويلاً خلالَ نومه حتى دَنَت تلك اللحظة وحَلّت، تُشبهُ الرَغبةَ فى امرأة ما، لا يمكن تحديدُهَا، منبثقةٌ من داخلٍ، دافقةٌ، مُحرضةٌ، نازعةٌ، لا فَكَاكَ منها ولا حَيْدَةَ عنها.

هكذا، قامَ ساَعيًا إلى الأهرام فى ليلةٍ هادئة، باردة، أبطأ صَقيعُها إيقاعَ مرور الوقت، جاءَ الهَرم الأكبر من الشرقِ، كانَ على يقينٍ أنّ ثمة

شيئًا إنسانيًا فى تلك الأحجار التى تبدو صَمّاءَ. وأنه لو تكَلّمَ فسوف يسمَعُ مَن يُخاطبه.

«تبدو الجبالُ ثابتةً، صَمّاءَ، لكنها تَذْوِى كُل لحظة.»

فى تلكَ الليلة أدرك أموراً عديدةً بَعضُها يُمكنُ التصريحُ أو التلميحُ إليه فمنها:

ـ استحالَةُ إدراك الأهرام بالنظرِ عندَ الوقوفِ بالقُربِ منه، فى مَدى ظلّه، أما رؤيته عن بُعد فَوَهْمٌ، لأنه لا يبدو على حقيقته.

ـ استيعابُ الارتفاع بالنظر مُستحيلٌ، التطلُّعُ من أىّ نُقطةٍ يتعارَضُ تمامًا مع زوايا مَيل الأهرام.

ـ البناءُ أَشمَلُ من إدراكه بنظرةٍ واحدة، لذلك أينما وقفَ الإنسانُ، أينما تطلّع فإنه لا يُدركُ إلا جزءًا من كُلٍ. توقّف عند أماكن بعيدة، بعضُها مُرتَفعٌ مثلَ تلال المقطم، والفسطاط، والضفّة الشرقية للنيلِ، وقف فى كُلِّ موضع مُدَدًا متفاوتةً فى الوقت، متساوية فى مَدته، كلّ مرة يرى مَشهَدًا مختلفًا عما رآه فى المراتِ السابقةِ، بل إن ما يُطالعُهُ عندَ انتهائهِ مُغايرٌ لما يراه فى البداية.

«الأمرُ نسبىٌ، الأمر نسبىٌ.»

تلك الليلة وقفَ تحتَه مباشرةً، طافَ به، هالهُ ما بدا عليه من حَجم

غير مألوف، مُندَمجٍ بالليل فكأنه جزءٌ منه أو امـتدادٌ له، بتأنٍّ بدأ قياس الضلع الشرقى، استوثق مواجهة كُلِّ ضِلعٍ لجهةٍ أصليّة، أما الارتفاعُ فلا يُمكنُ إدراكُهُ بالتَطَلُّع، يظلُّ المرء قَلقًـا، مُتأرجحًا، مُـوزَّعًا بين الشروعِ والبلوغِ، بين التخطيطِ والتنفيذ، لا يتجاوز أبدًا.

منذُ تلكَ الليلة بدأ يتّجهُ ببصره إلى الأهرامِ حتى وإن توارىَ عَنهُ، لكنه تَقَلقَلَ واهتزّ عندما شَرَعَ فى التّثُّبتِ.

«الإنسانُ راجِلٌ، والوَقتُ راكب، فكيفَ يَلحَقُ العَابر بالأبديّ؟»

بعدَ تأكُّـده من مُواجـهة كُل ضلعٍ لجهـةٍ أصلية بدأ القـياس. إلا أن اضطرابَهُ بدأ عندما شَرَعَ فى المحاولة الثانية للتأكُّد، بعدَ المرة الثالثة أيقَنَ مَن الفـرق. الاختـلافُ أمرٌ لا يقـبَلُ الشَكّ. ثلاثَةُ أيامٍ لم يجـرؤ على تكرار المحاولة. شَكَّ خلالَها فى أمرِه، فى اسـمه، فى انتمائه إلى البلد القادم منها، بل.. والمقيم فـيه. غابَ عن ذاكرته وادى زَمّ بما حَوَاه من وَاجهاتٍ ونواصٍ وقمم أشـجار وصفاء جَوٍ، وملامح أحـبّة، صارَ يسألُ نفـسـه· أحقًـا سـعى هناك؟ هل تبع شـيـخه إلى درجـة الخـروج عن الأوطان؟ أحقًـا جرى ذلك؟ لم يتوقّف عن المحاولة. فى المرة السـابعة والتى جرَتَ بعـد انقضـاءِ شهر قَـمَرىّ فُوجئ بتَطَابُقٍ دَقـيق مع نتيـجة المحاولة الأولى. لكن فى الثامنةِ اختلفت تمامًا.. أذهَلَه ذلك الاختلافُ البَيّنُ فى شىء محسوس.

«الألفةُ فى غيرِ الوَطَن تُذْهبُ باليقين.»

تلكَ فترةٌ وعرَة، ذَرَفَ خلالها دَمعًا خفَيًا، كُلّما عانَى ضغطةَ وحْدته، وشدّةَ فردانيته، غيرَ أنّ مُجَرّد وقوعِ عينيه علىَ الأهرامِ يَبُثّ داخلَه سكينةً، يستَسلمُ للنظَر، إلى مهابة التكوين، إلى استعادة ما جَمَعَهُ عنها من القوم، عن حُرمَتِـها المتـوارثة، عن تَفَـحُّم أىّ زَوج من ذَكرٍ وأُنثى دَخـلا إليهـا وحـاوَلا الإتيانَ، عن وجـودِ طيورٍ غـامضـة تُرَفرفُ فى فـراغاتهـا، عن طلاسمَ مُعـدّة ماتَزَالُ فاعلَة، أمـرُها مُجَرّب. مـازالَ الأهالى يُكنُّون رَهبةً واحترامًا لكُلّ مَن يدنو أو يُبدى اهتمـامًا، لكنهم لم يُفضُوا بأسرارهم وما يعلمونه إلى غريب عنهم، خاصةً الطرق المرئية، الخفيّة التى يسلُكُونها فى اتجاه القمة. من تخصّصوا فى ذلك اعتبروا هذا سِرّهم المكين، لَقّنوهُ على مراحل لأبنائهم أو ذويهم، أولـئك الذين لاحت عليهم علامـاتُ النجابة والاستعداد للطُلوع.

«كُلُّ نَفْـسٍ تائقَـــة.»

ثلاثُ ليالٍ، فى الموعد عَينه. جاءَهُ شيخُهُ بنفسِ الهيئة التى تَرَكَهُ عليها فى وادى زَمّ، أشارَ إلى الجاَمع الأزهر، وكلمّا هَمّ بالسؤالِ رَفَعَ إصبعه فى استقامةٍ لا تَقَبلُ الجَدَل. يأمره بغيرِ نُطق أن ينتظر هناكَ لحظةً يزوره فيها.

صباح اسـتيقظَ فيـه قلقًا، غامضًـا، مُنقَطعَ الأسبابِ بموضع إقـامته، وصلَ إلى لحظةٍ فاصلة، كانت مـلامحُ شيخه ناصعةً، تسـدُّ عليه جهاته. تَحُـولُ دونَ ورود أىّ خاطرةٍ عليـه، إشارَةُ يَده تَدلُّه وتُنذره، تُرشـدُه إلى

الأزهر، وتُحذّره ألاَّ يَحيد ببصرهِ عن الأهرام. قطعَ المسافة الفاَصلةَ مَشيًا. ما بينَ الهـضبة والجامع، لَزَمَ الصحـن، أصغى إلى الشُروح والتفـاسير، أعجبَ القومَ ترتيلُهُ للقـرآن بالطريقة الأندلسية القديمة، وكـذا رفعُهُ الأذانَ بنفس النغمات التى ترددّت فى قرطبـةَ وغرناطة وشَنْترة ومازَالَ فى بعض أحياء المغـربِ القديمة بفاس ودكالة وطنجة وكـذلك وادى زمّ، وغيرهُ من النواحى والجهات. من أسعدِ مراحِله تلكَ التى بدأ فيها الصعودَ إلى المئذنة وتطُّلعه إلى بهاء الأهرام التى ينتهى عندَها الأُفق، ويقعُ الخطُ الفاصل بين الأرض والفراغ العلوىّ.

«كُلُّ طريقٍ يُؤدّى حتمًا إلى طريقْ.»

لم يحد قطّ عن الأهرام، إمَّـا بالنظر مباشـرة، أو بتَطَلُّعِ القلبِ أوقاتَ هجومـهِ، أو استناده إلى أحد الأعـمدة فى الصـحن الأعظم، أو جلوسه للمذاكرة داخل رواقِ المغاربة، غـير أنه طوالَ تلك السنوات كانَ فى حالة انتظارٍ خفيّة تارةً وجلـيةٌ أُخرَى، إلى أن وفدَ عليه شيخُـهُ مُرتديًا البياض، عَبَرَ الصحن من جهةِ الشرقِ إلى الإيوان الغربىّ، كان يجلسُ تحت المزولَة الشمسية، شخَص إليهِ ببصرهِ وكينونته تلقّى عنه الأمر بالانتقال من داخل الجامع إلى مُحاداته، إلى الرَصيف المحيط، وبَدْء الاشتغال بالكُتُب انتظاراً ليوم مايَحُلُّ عليه ضيـفًا من بحوزته مخطوطٌ عتيق، فيه الشـرحُ والتفسير لكل ما استعصى عليه من حروف غامضة بانت له مع مداومته التطلّع إلى الأهرام. عليه بالصبر، وعدم الحيدة، هكذا. استقرّ فى موضعه، ظهرهُ

إلى جدارِ الجامع، وعيناهُ باتجاه الغرب، صارَ يتتبّعُ ما يجرى داخلَ الأزهر، وتنقّل زملائه الذين حصلوا على الإجازاتَ ودرّجوا فى المشيخة، وصارَ كل قادمٍ أو ساعٍ إلى كتابٍ يحوى احتمال كونه ذلكَ الآتى بالمخطوط المنتَظر، لذلك لم يَصُدّ ولم يعبَسْ فى وجهِ امرأة أو صبى أو عجوز. . فمن أيَنَ له أن يدرى. ورغمَ انتظاره، والمنتَظر قَلقٌ دائمًا، غيرُ مُستَقر، فإنه ظَلّ شاخصًا دائمًا إلى ناحية الأهرام، وكثيرًا ما تأخُذُه رَجفَةٌ يجتهدُ لإخفاء أعراضَها إذ يَقوَى عليه حضور هذا البناء، المهيمن، المشرِف، المُلغَز، المُحيطُ، الدالُّ، الجلىُّ، الغامِضُ، الراسِخُ، الصاعِدُ، الثابِتُ السارِى، القريبُ فى بُعَده، البَعيدُ فى قربِهِ.

* * *

مَـتنٌ ثـانٍ

إيغَـــال

. . . وفى هذه السنة شَاعَ أمْر فتية الأهرام، قيل إنهم سبعةٌ عُرفوا بتقارُبهم، وامتزاجِ أهوائهم، وترحالهم صُحبةً وشُرُوعهم معًا.

لَكَمْ شُوهدوا معًا، من سُوق الحمامِ إلى سُوق الشمّاعين، ومن شارع العُطور إلى النّحاسين، ومنَ الخَيّامية إلى السيُوفية، ومن المقطم إلى القناطر، ومقهَى الخلاء، إلى مقهى المدينة. كانوا طُلاّبَ علمٍ، أهلَ ثِقَة، وإقدام، وجُرأةٍ على المغامرة، وكثيرًا ما خرجوا صُحبَةً إلى الصحراء أو الريفِ القريب، كانوا مُقبِلين، والوقت أمامَهم.

عندما عَزموا أمرَهم، وانتهوا إلى تحويل قرارهم من فكرَةٍ إلى خطوات حقيقية، أطلعوا أحبابَهم، طافوا بشُيوخهم يلتمسون الإذنَ والبركَةَ. تفاوَتتْ رُدودُ الفعلِ، فقليل شَجّع وآزَرَ، وكثيرٌ حذّر وأنْذَرَ، غيرَ أنّ ذلكَ لم يَفُتّ، ولم يُثنِ.

كانَ خروجُهُم مشهودًا، ومازالَ كثيرون يذكرُون بهجَتَهم، وحلاوةَ تَضَامِّهم، ورقّةَ مَرَحِهم، لحظات صعودهم الأحجار وتلويحهم، للواقفين، المراقبين، الشاخصين. التفاتة كُل منهم قبلَ دخُوله، قبل عبوره النَقْب الذى أحدَثَهُ الخليفةُ المأمون. تطلّع كُلٌ منهم جهةَ الشرَقِ، إلى الجمعِ ومنهم أهلٌ، صَاحوا مُنادينَ ومُشجعين ومُودّعين.

الحقُّ أن أمرَهُم شاعَ فيما بعدُ أكثرَ، عزمُهم ألاّ يرجعوا قبلَ الوصولِ إلى صميمِ الأهرام المتين، القَصِىّ المكين. أخذوا مَعَهُم ما يلزَمَهُم من زادٍ وحبالٍ وأدواتٍ تُمكّنهم من ارتقاء الجدران أو النزول فى المهاوى،

وأعـشابٍ وأخـلاطٍ لمداواة الجروح، أمـا التغلُّب على الوَحـشَة والرهبـة فجعلوه من شئُونهم.

يُؤكّدُ البـعضُ أنهم خالطوا كُلَّ من له صِلةٌ بالأهرام، خـاصّةً الذين أوغلوا داخلها إلى مـسافات مـتفاوتة، وأمضَـوا أوقاتًا فى مهـاويها أو مراقـيهـا، وأنَّ ما شَـرَعوا فـيه لـم يكُن نتاجَ نَزوَةٍ، إنما ثمـرةُ تخطيطٍ وتدبير.

يؤكّد آخرونَ أنهم مَضَوا بدون أىّ فكَرةٍ مُسبَقَة عن الشعَاب الغميقة فى الداخلِ البعيد، أقدموا غير مُزوّدين إلا برغبَة هائلة فى المعرفة، والوصول إلى تُخُومِ المجهول، لو توّفرَ لديهم قَدْرٌ لما أقـدموا فالإحاطةُ بأمرٍ مُقلقة، ولو اطّلَعَ المرءُ على الآتى لاختارَ الحالى، القائم، هَذا حقٌ لكنّ المؤكّدَ أن ما أقدموا عليه كانَ مُغايراً، لم يَسبِقْهُم إليه أحد.

يلى النَقْبَ مُرتقىً دهليزىٌّ صـاعِدٌ بميلٍ خفيفٍ لا يبدو مُـجهداً، وعراً تَسَلُّقهُ حـتى يُخيّلُ للكثـيرين أنه مـستوٍ، لن يكلّفـهَم من أمرِهِم عـسرًا. ولَجوا مَرحينَ مُتوثّبين، مُـتطلّعين، كانوا مُضطّرين إلى الانحناء، الارتفاعُ لا يسمح لمتوسطِ القامة أن يَفـردَ طُولَه، كانوا يعرفون ذلك، مُدركينَ إلى ضـرورة انحنائهم لمسافـات طويلَة، تَطَلّع كلٌ منهم إلى الأمـام، خاصّـةً أوّلُهم الذى لم يكن أكبَرَهـم سنًا ولا أكثَرَهم تجـربةً، إنما كان الأشدَّ حَزْمًا والأظهرَ اتزانًا، وأثناء الإعداد أجمعوا علـى تسليمه أمرهم، والمرءُ يحتاجُ

دائمًا إلى من يدلُّه أو يُرشِـدُه، تستوى الحاجةُ إلى ذلك فـى شتّى مراحلِ العُمر، تتغيّرُ الدرجَةُ فـقط، أحيانًا يكونُ إنسانًا يسعى أو كلمات قديمة فى كتاب مُدَوَّن، أو وصايا محفـوظة، متناقلة. كان أوّلهم ثابتًا، يبدو هادئًا، راسخًا، قويًا على مـواجهة البغتات، لم يختلف أمـرُهُم، فتلكَ المسافات أمرُها معروفٌ، بعضه مُدَوَّن.

ما خالَجَهَمُ ذلك القلقُ المصاحبُ للشُـرُوع، للبداية، للانتقال من حالٍ إلى حال. الإقدام على قَـصْد المجهول يُثِيرُ المرءَ أيًا كانَ، لكـنهُ اجتهدَ فى إخـفاء ذلك. إنهُ الوحـيدُ الذى لم يَلـتفت إلى الخلف عندَ الوصـولِ إلى نُقطة وَهن عنْدَها الضوء الوافدُ من الخارج، أصبحَ بعيدًا، صدى الصدى، خطوةٌ واحدةٌ فَقط ويختـفى، خاصّةً مع مَيْلِ الممرّ إلى اليـسار. يبدأُ ضوءٌ آخرٌ، هادئ، خافت، حَـيّر السابقينَ واللاحقينَ لأنه مجـهول المصدر، لا يقـوَى هُنا أو يضـعف هناكَ، لا يُكوّنُ ظلالاً للمـوجـودات القائمــة، أو الأجسام المتحركة العابرة، فكأنه يخـترق ما يعترضُهُ، وهل رأى أحدٌ ظِلاً داخلَ الأهرامِ. هل أخبرَ مَن دَخلوها بذلك؟

عندَ تلك النقطة الفـاصلِة يلتفتُ كُل منهم بـتلقائية، ربُما لإلـقاء نظرةٍ على آخـر مَلَمح من واَقع مـعـروف، مألـوف، حتى وإن احـتـوى على مجهولٍ، غير أن ما يسعون صَوبَهُ أشدّ غموضًا، فالأمر دائمًا نسبىٌّ.

مع تَقَدُّمِهم عبرَ الفراغ مجهولِ الإضاءة تقاربَوا أكثر بقدرٍ غير ملحوظ، لكنهم انتبهوا إلى ذلك فيما بعدُ، وعندما ارتفَعت أصواتُهم قالَ أولهُم إنه منذ الآن سوف يكونُ الضحِك بحسابٍ، والحديثُ بقَدر، كلُ جهدِ مَبذولٍ

يَسْتَهْلكُ قَدراً من الطاقة، وتلكَ تعتمدُ على الهواء.. وبالطبعِ، المتيسَّر منه في الداخلِ غيرُهُ في الخارَج.

لم يكنْ ذلك بغريبٍ عليهم، سمعوا ذلكَ في أيام التجهيز والإعداد، قبلَ عبورهم من واقعٍ إلى واقع، من عالمٍ يعرفونه إلى آخر لا يَلُمُّون بمساراته وتُخُومِه، كلٌّ منهم بدا مع كل مرحلة، بل.. كلِ خُطوةٍ وكأنه بحاجة إلى مَن يُذكّرُه بما أَلَمّ به قبلَ عُبوره النَّقْبَ، إلى استنهاض البديهيات التى تداولوها، وحَفظوها قبل شروعهم، لَكَن.. هذا أمرٌ من جُملةِ الطبائع، فَرْقٌ كبيرٌ أن يقرأ الإنسانُ أو يسمعَ. وبين أن يُعاينَ ويعرفَ.

بعد اجتيازهم المَمرَ الأولَ، ودخولهم إلى المرقىَ التالى، تزايدَ المجهودُ المطلوبُ لكن بقدرٍ مُحتمل. المقارَنَةُ بَين مرحلةٍ وأُخرى، كلاهما داخلَ الهرمِ، وهذا مستَجَدٌّ، وعندَ وصولهم إلى الغُرفة المربَّعة التى كانت ترقدُ داخلها الرمَّةُ البالية داخلَ الحوضِ الرخَامىّ تَطَلّعوا إلَى بعضهم، رغمَ قصرَ المدة المنقضية إلا أن كلاً بدا وكأنه يرى الآخر لأول مرة، ربما بتأثير الضوء الغامق، أو لأنهم يتواجهون بعد تقاطُرهم بحذرٍ، كانوا يفيضونَ نشاطًا وحيوية، غيرَ أنهم بَدَوا حذرين، يكبَحُ كلٌ منهم رغبةً ما، إمَّا فى الحديث أو الضَحك، أو التعليق على بعض مما مرَّ به. لم يتذمَّر أحدُهم، حتى ثالثهُم الأصغرُ سنًا والأضعفُ بنيَةَ، أرَقُّهُم حضوراً، غير أن يقينًا خفيًا لدى معظمهم أنّ ثمةَ تغييرًا وقعَ، ربّما فى الملامح، فى النظرات، فى التطلُّع، غير أنَّ المبررات عديدةٌ ومُقنعة، منها طبيعة ذلك الضوء، الصعودُ البطىءُ المُدْرَكُ بتسارُع الأنفَاس وزيادة الجهد المبذول. غير أن

تقديرَهمَ للوقـت بدا مُحيّـرًا، بعضهُم خُـيِّل إليه أنّ وقتًـا طويلاً مضَى، وآخـرون كانوا على يقـين أنهم لو عادوا واجـتـازوا النقْبَ من داخلٍ إلى خارجٍ فلن يجدوا شمسَ يومِـهِم الأولِ متقدّمةً كثيرًا فى السماءِ، ربما لم تبلُغْ منتصفَهَا بعدُ.

أولُهم تحدّثَ عن ذلك فيما بعدُ عندَ نـقطة مُتقدمة، قالَ إنهُ على يقينٍ أن للأهرام ناموسَـها الزمانّى والمكانّى المُغـايَر، الخطوَة لها قيـاسٌ خاصّ، الزمنُ إيقاعهُ مُـغاير. أولاً. . ما من شُروقٍ أو غُـروبٍ مُدرَكٌ هنا، ما مِن صُبح أو ظُهـرٍ، لا وجودَ للأصيلِ أو الضُـحى، لا ضَوءَ يتغـيّرُ أو ظلالا تتعاقبَ أو تتوارى، وأن ما يُخيَّلُ إليـهم أنه انقضاءُ ساعةٍ فى الداخل ربما يُوازيه مُرورٌ شَهرٍ فى الخارج، ورُبما أكثر، أدهشهم دلك لم يعلّقوا، حتى عندما طالبَ مَن يُفكّر فى الانثناءِ والعـودةِ ألا يُدهَشَ إذا لَقىَ زمنًا مُغايرًا تمامًا لما يَعرفُ وألفَ.

لم يَطُل مُكثُهُم فى الحجـرة المربّعة. اتجهوا إلى الفتـحةِ الموجودة، فى نهايتـها ازدادَ انحناؤهم عند عـبورها، وطبقًـا لما دَوّنَهُ أصحابُ التـجارب السابقة فلابدّ أن تتّسع المسافةُ بين كُـلّ منهم، فيما بعدُ قال ثالثهم إن أول هبّات الحنينِ والتَذّكُّـر وَرَدَت عليه أثناءَ جلُوُسِهم متواجـهين داخل الحجرة المربّعة، هَلّت على فؤاده رائحةُ شجرةِ تين عتـيقة، تتدلى أطراف أغصانها لتلامس مياه ترعة عميقة، كَـان يعبرها يوميًا ويتذوّقُ ثمارَها، لمحةٌ عابرة، مارقة، لم تعنِ عندهَ شيـئًا فى البداية، لحظة وقوعها، لكنها صـارت فيما بعد محطة غيـر مرئية، يُطيل الرُكُونُ إليها كلّمـا أوغَلَ يكتَشفُ من خلالِ استعـادتها مالم يَقفُ عليه لحظـةَ وقوعها. هنا. . فى هذا الحـيّز الضيق.

المحدود فى الظاهر، يُدركُ مالم يستوعبْـهُ بالنظرِ المباشرِ فى الخارج. كثيراً مـاَلا يكونُ الاستيـعابُ لحظةَ السَـمـاعِ أو النَظر إنما يتمُّ الأمـرُ كلّه عند الاستـعادة بالخيالِ، ويبـدو التفسيرُ الذى استعصَى أمـرُهُ زمنًا، يبرق مع اللحظة المستَعَادةِ من بين ثنايا الذاكرةِ، ترسّخ ذلك مع تَقَدُّمِهِم، إيغالهم.

بدا ارتقاءُ الدهليـز التالى مختلفًا، المُنطَلَـق مُغاير، والخطو ذو دلالات أخـرى، فى الأولِ كانت نقطةُ الارتـقاء تبـدأ عند النقْب، عَندَ الفـتحـةَ الفاصلة بينَ الخارجِ والداخلِ، بينَ عـالمين، لكن الانتقالَ الآن، من داخلٍ إلى داخلٍ، عـبـرَ ذاتِ التكوين، فَـالمغـايرة تتمُّ فى إطارِ الدرجـةِ وليسَ النوعية، هكذا بدا لهم الأمر فى البداية.

التقـدُّمُ فى الدهليز الثـانى يقتـضى وَضعًا مـختلفـاً، فى الأولِ كانوا متـقاربين، بوسع كل منهم لمـسُ الآخر لو مَدّ ذراعَـه، لكن هنا لابدّ من قَطع مسـافة، ربما خطوتين أو ثلاثًا، لكنها مـساحة، أحـيانا تمرّ لحظةٌ لا يَمكن لأىّ منهم أن يرى الآخَر، لكن يُخففّ الإحسـاس بالوحدة المباغتة سَـماعُ الحـركة، والإصـغاءُ إلى الخطو، غَلَـبَ على كُلٍ منهم الانشغـالُ بالنفس، وإن راحَ الفِكرُ إلى الآخـرين فـإنه جزءٌ مـن الاهتمـام بالذات، سلامتـهُ جُزْءٌ من سلامتهم، وما قـد يَلْحقُ بالآخرين يمكن أن يلحق به، وما يـعرض لأولهم سـيلحق بآخرهم. كـان الشعـورُ بالقُربى أقـوى فى المرحلة الأولى، قـبلَ بلوغهم الغـرفةَ المربّعـةَ الأولى، وَهَنَ بدرجـة ما، يدركونَ أنّ آخرين سبَقُوهـم إلى هذا المَرتَقىَ، حتى هذا الجزء كانت خُطىً سابقـةٌ مَرّتْ، رغم ذلك فإن قلقًـا خفيًـا حوّم، المكانُ غيـرُ مَطروقٍ بقدر كافٍ، المفاجأةُ قد تقعُ فى أى لحظةٍ بغتةً.

رغمَ المحاذير، إلا أن بهجةً سَرَت، خاصةً مع الشعور الدائم بالارتقاء، وعيٌ خفى أنهم يصعدون إلى أعلى باستمرار رغمَ أن درجة الميل لاتكاد تلحظُ، ثمة صعود يتم صوب نقطة غير مرئية، غير مدركة. غير محدَّدة، لا يمكن تعينها، أو الإشادة حتى إلى الجهة الواقعة ضمنها. لم يَصفها أحدٌ مِن قبل، نقطة ربما تتغير بالنسبة لكلٍ منهم، فَلا تجمعهم عندئذٍ إنما تفرقهم.

كافة الاحتمالات قائمة.

الفراغ الداخلى لا علاقة له بقياسات الخارج، يبدو حديثُ أولهم أقرَبَ إلى الأفهام الآن، هنا.. المكان غير المكان، كذلك الوقت، ومن يخيِّل إليه أنه أمضى يومًا بالقياس إلى ما عرفه، ربما يكتشف عند رجوعه، اجتيازه النقب من داخل إلى خارج، أن زمنا طويلا قد انقضى، لن يتعرّف عندئذٍ على المعالم والملامح، لن يجد ما يأتنس به إلا الأهرام فينثنى عائدًا، موغلاً إلى أمدٍ لا يدرى قراره، تمامًا كما يجهَل القوم منتهى هذا البناء، وغاية عمادته.

مع تمام إدراكهم بالطلوع ينمو أيضا يقينهم أنهم معلقون، ولو أمكنَ لبصر اختراق الحجر لرآهم فى صميم الفراغ، رغم صَلادَة الأحجار، وتقارب الجدرانِ، رَسَخَ يقينهم بمقدمِهِم الذى لم تبدر منه إشارة تنم عن خشية أو تردد أو قلة يقين، استكانوا إلى وجوده فى المقدمة مع أنه صارَحَهم أن معرفتَه بالأعماَق لا تزيد عما أحاطوا به إلا قليلاً، وأن ذلك قاصر على مسافة محددةٍ طَرَقَها البعض قبلهم ودوَنوا بعضًا من

ملاحظاتهم، حتى هذا النزر اليسير وجده بالمعاينة مختلفا بقدرٍ، أفضى إليهم بذلك عند بلوغهم الغرفة الأولى، لكنهم نسوا هذا كله. أو تجاهلوه، وأبدى كل منهم ما يؤكِّد أنهم يوكلون أمرهم إليه بالكلية. حتى أنهم عند توقّفه ينتظرون ما سيقدِم عليه، وما سيّلوح منه.

لحظة وصولهم إلى الغرفة الثانية ابتهجوا. بدا على ملامحهم الارتياحُ. ثمة مرحلة تَمْت، وخروج من دهليز، وانتباه إلى تيار هواءٍ سارٍ، خَفِى المصدر، غامض الوجْهَة لكنه مطمئن، منعش.

أطالوا النظر إلى بعضهم، كأنهم يتعرَّفون إلى بعضهم لأول مرة، قبل استغراقهم، وبدء استعادتهم الخطى وإبداء الملاحظات على ما عاينوه، قال مُقَدّمُهم، إن البقاء مستحيل، ولابد من المواصلة، وهذا ما أوصى به كل مَن بَلَغَ هذه النقطة من قبل، وليتنبهوا.. فالمرتقَى الثالث آخر مَمَرٍ مطروق من قبلُ، بعد انتهائه سيلجون مواضع، لم يرِد ذكرها من قبلُ، ولم يجرؤ على اقتحامها أحدٌ، لم يَقل إنه ربما حاول البعض لكنهم لم يرجعوا ليخبروا بما اطلعوا عليه، ربما لأنه لم يكْن على يقينٍ، لمن يكن من صفاته الإخفاء أو المداورةُ، كانَ صريحًا، واضحًا كالشهيق.. هذا إلى جانب عَوامل أخرى مما طمأنهم وبث ثقة فى نفوسهم، تأملوه خلال لحظات تقابلهم أكثر مما تأمّلوا نقوش الغرفة الساطعة بألوانها، وتلك الحروف الغامضة والتى تبدو كأنها فى حركةٍ دائمة من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى.

كانت العرفَةُ الفاصلة بين المرتَقى الثانى وبداية الثالث مستطيلةً، تخلو

من أى حوض رخامى أو خشبى، جدرانها مغطاة تمامًا برسوم وتصاوير يتخللها ما يُشبِه الحروفَ، ليسَت يونانية أو سريانية.. وبالطبع ليسَت عربية خيِّل إليهم أجمعين أن مقدّمَهم يدرك بعضا من أسرارها إن لم يستوعبها كُلها، غير أنه بدا حائرًا أمام بعضها، لم يخف ذلك، قال إن ما نقش على الجدران الخارجية لا علاقة له بما يراه هنا وهذا محيرٌ.

لم يَطُل مكثهم، لم تتشَعّب استفساراتهم، كان امتثالهم تاماً. كافة الأقاويل المتوارثة، والسطور الشحيحة المدونة تنصح بسرعة الانتقال، والحذر من تلويثها، أو التفوه باللفظ الخشن، أو إتيان الفعل الفاضح، يعلم الكافة مصير كل رجل وامرأة شرعا. حكى القدامى عن دخول شاب وصاحبته بغرض الخلوة فتحوّلا إلى رماد منطفئ. مرة أخرى صحب أربعة رجال غلامًا جميل الصورة، وبمجرد شروعهم تيبسوا جميعا. تحوّلوا إلى أحجارٍ ممسوخَة.

هذا معروفٌ، مَقطوعٌ به.

ما يجبُ الانتباه إليه، تَغيْر الهواء وثقله، بما يؤدّى إلى غَلَبَةِ النوم، مَن يغفُ لحظة فلن يفتحَ عينيِه مرة ثانية.

ليسَ الوَسَنُ أخطَرَ ما يتهددُ العابرين، لكنها الأحلامُ المصاحبة، حيث تبدو وجوه أنثوية مفتقدة عندهم، عذبة، جميلة. عيون شرهة فياضة بالرغبة، شفاه ساعية، وجنات متورِّدة داعية للقطاف، وأصوات هامسة، مغناجة، ملهبة للأعصاب المدسوسة. ألوان لا مثيل لها فى عالم الحسّ، لا يمكَن تحديدها أو تصنيعها أو نسبتها إلى الأزرق أو الأحمر أو الأصفر،

تمرق خلالها لحظات اندماج شعشاعيـة متأججة، قادمة من العدم اللامرئى إلى الحضـور العابر فـتنعشـه وتبث فيـه دَفْقًـا لا يمكن الصمـودَ تجاهَهُ أو استـيعابه فـتكون الرَقدةُ الأبديةُ لم ينصـحهم باتباع خطواتٍ مـعينة، أو تلاوة نصوص مقدسة، أو اللجوءِ إلى لحظاتٍ موازية.

على كل منهم أن يُواجـهَ بمفرده كـافة المُغرياَت، المثـبطات، وربما هذا سببٌ لكمونِ كلٍ منهـم لتباعده عن الآخرين، ليس بالمســافة فقط، ولكن بالحسِ، فما يجب مقـاومته خلال هذا المرتقى يمثل فى الداخل، ولا يأتى من الخارج.

أربعة وأربعـون هوة سحيـقة، يلزم لعُبـورها إفساح الخُطى، وأحـيانًا القفـز، احتـاط مُقـدَّمُهم لذلك فـربَطَ خَصْـرَ كل منهم بحبل يـشُده إلى الآخرين، حتى إذا زَلّ تعلق مصيرهم به فـيضطرون إلى بذل الجهد لرفعهِ أو اللّحاق به.

لا شكَ أنَ طبيعـة الضوء تغيّرت خلال اجـتيازهم ذلك المُرتقىَ، يمكن القول إنه ضوءٌ ولا ضوء. عتمةٌ لا تحـجب مواقع الخطى غير أنها جاثية، أسباب عديدة أدت إلى ترسـيخ اليقين بمهابة الفراغ ولا نهائيـته أيضًا. أما الرائحة فكانت مغايرة. إنها أكثر ثقَلاً، لكنها ليست خاملة، عطنة، رائحة غامـضة تثير الخـلايا وتخيف أيضًا، تومئ إلـى مجهول يصَـعُب إدراكه. مازال الإحساس بالصعود قويًا، ربما ساعدَهم ذلك بدرجة ما على مقاومة النوم، وتلك الرؤى، استـلزم الأمـر جـهدًا أدّى إلى تَسـارُعِ الأنفـاس، ومَغَالبةِ الجهد.

أصعَبُ مـا واجَهَ مُقـدمَهم، أولَهم، دليلَهم، الملمَّ بمـا دَونَه القُدامى، أشقّ ما فُـوجئ به تلكَ الأصواتِ الآدمية، الأنـثوية. الناعمة، المبـثوثة، تتخللُ لحـيظات الانتقـال من اليقظة إلى مـشارف النوم، التـأرجُحُ خلالِ اليـقظة الحتـميـة التى لا مفـر منها، لم يدرِ المصـدر بالضبط، إذ تـسرى النغـمـات خلال المسـام من خـارج إلى داخل، ومن داخلٍ إلى خـارج، أصـواتٌ تَلُوح فى البداية مـتـداخلةٌ، يمكن تمييـز كل منهـا مع التدقـيق والإصغاء الذى يعنـى الاستسلام لوطأة الوَسَن، فى درجاته يـبدو التثنى، الرحـابةُ والتَمكُّن، لحـيظاتُ الذروةِ السـابقةِ عـلى انطفاءِ الشَـبَق، وتمامِ الأرب.

لكن بلوغَـها هنـا. فى تلك المنطقة من داخـلِ الأهرام يعنى التَبَـدُّدَ، التَذَرَّىَ، ليس هو فـقط، إنما مَن معه، صَـحبُه الذين أسلَمُـوه أمورَهم، تلكَ أصعَبُ المراحلِ حتى الآنَ، بعدَ تمامـها وقعَتْ أُولى المفاجآتِ المؤلمة، المنهِكة.

فى الغرفة الثـالثة، الأضيقِ عَرضًا، الأكـثر ارتفاعًا، ضيـقة السقف، هرميـة الشكل، عندما تواجهـوا مُنهكين، مُتعَـبين، مترقَـبينَ، أدركوا أنّ التمامَ ولّى، وأنَ النُقصانَ بدأ.

الآن.. هم ستة!

كيف تمكّنَ صـاحبُهم من فَكَ الحَـبْلِ الذى يشُدُّه إليهم، أم أنه فـارَقَهُ مُرغـمًا؟ ربُما يَسْهُل تَصـوُّرُ الأمرِ، خاصّـة أنه آخرُهم، السـابعُ، أشدُّهم حيويةً، وأكثرُهُم حماسًا قبلَ الشروعِ.

أينَ مَضَى؟

تَعْسُرُ الإجابةُ. لا يبقَى إلا التخمين، ربما استسلمَ للوَسَن، أو تَبعَ الصوتَ فَهَوَى، أو أدركَهُ نَصَبٌ فجثا، أو آثَر الكَفَّ فانْثَنَى.

تَطَلّعوا إلى الفَتحة التى أدّت بهم إلى هذا الموضعِ فلم يَرَوها، لم يُساعدهم الضوءُ الغامقُ، ربما لم يَشاءوا التوقُّفَ تحاشيًا لإدراكِ حقيقة مؤلمة، هكذا يكونُ الإنسانُ أحيانًا، ولكن لفتراتٍ قصيرة، سُرعانَ ما يستَجمعُ بعدَها نفسَه فينتبه ويدركُ ويحاول.

يعى مُقدمُهم الآنَ بلوغَهم نقطةً لم يصل إليها أحدٌ، كلُ ما يلى ذلك غيرُ مطروقٍ، غابَتْ أخبارُهُ مع المندثرين، مجهولٌ الآن بالمرة. كل منهم استرجع ملامح الصاحب المختفى بقدرٍ، هكذا.. بعد رِفقة، ومُشاركَة، صارَ استدعاؤه بالمُخيِّلة، وللمحاتٍ وجيزة، يغيبُ هنا ليظهَرَ هناك، وعند لحظة معينة ينطوى فلا يُخلفَ لمحةً أو أثرًا. تقدُّمهُم وخطوُهُم هنا لا يَتعلّقُ بهم، بقرارِهم شأنَ المراحل السابقة، المنقضية، إنما لابدّ من انتظارهم، حتى ظهورِ الفتحة التى تبدو لكلٍ منهم بصورة مُغَايرة، ربما مستديرة، أو مستطيلة،أو مثلثة. أمَا توقيتُ الفَتْحِ فلا يدٌ هم فيه، إنما يرتبطُ بعواملَ يَصعُبُ تفسيرُها، كثيرونَ طواهم الانتظارُ هنا، وكثيرونَ ملّوا فانثنوا عائدين، وربما مضى البعضُ ولم يرجِع.

استرجَعَ بعضُهم ما يُروَى عن المفاجـآت التى يتعَّرضُ لها الطُرَّاقُ، انخسافُ الأرضِ فجأةً، خروجُ ماردٍ يحملُ سيفًا، يقطَع رقبةَ كل من يتجاوزُ حدًا معينًا داخلَ الأهرام، هذا الحدُّ غيرُ واضحٍ، بل يقالُ إنه

يختلَفُ من شخصٍ إلى آخرِ، أو هبوبُ رياحٍ كاســحة، عاصفة من مركزِ الأهرام، تنفُذُ إلى أدقّ أقســامه لتُبيدَ كُلَّ من جـرؤَ وأوغلَ، يُحيرهُم هذا الهواءُ اللطيفُ، الناعمُ، المنعشُ، لا يَتوقّفُ عن الهـبوبِ المنتظم والسرَيان عَبْر وتيرةٍ لا تعلو ولا تَـهن، لكنَّهَ من حين إلى حين يشتدُّ ولكن فى كل الأحوالِ لا يُسْمَع لهُ صَوَتٌ. يخشونَ تحوُّله إلى درجةٍ تَعصفُ بهم كُلهم. مُقدمُهم أخفىَ عنهم توجّسَه وخشـيَتَه من هذا الهواءِ الطيِّب، بقَدر هفوفه ورقّته أثارَ عندَه رعدةً خفـيةً لم يُفصَح عن مداها، لم يَطّلع على أىّ ذِكْرٍ له فى سائرِ المراجَعِ التى ألَمّ بها، ولـم يُخبـرهُ أحدٌ شفَاهَةً ممّن ادّعوا العلمَ بالخبايا والأسرار، لكن. ليسَ هذا إلا تفصـيلٌ ضئيل. إنهم عَندَ مُفتَرَقٍ حَاسمِ الآن. ولُوجٌ مختلفٌ، خطا مغايـرةٌ، أما ضيقُ المرتَقَى فباعِث آخر على الحَـصْرَ والشـعورِ بالنُكْس. كـانَ الانحناءُ مؤلمًا فى البـداية إلا أنهم اعتادوا عليــه، خاصّةً مع تحريكِ أعضائهم بشكلٍ مُـعَين، عندَ نقطةٍ معينةٍ ازدادَت سُرعَتُهم كأنّ قوةً ما تدفَعهم. أو الأرضُ تُطوَى تحتَ أقدامهم.

فى لحظةٍ معينةٍ بدأ تَقَلُّصُ إحساسِهم بالارتفاعِ، كلٌ منهم على يقينٍ أن انحــدارًا بدرجةٍ مـا بدأ، لم يكُن الميلُ مُـدْركًا فى البـداية لكن مع تزايُده أبْدىَ مقــدمهم حَـذَرًا، اضطُروا مِثلَه إلى مـحاولةِ التَـمَهُل والتَـشبُّثِ مع التمسُّكِ بالجوانبِ المُصْمَتَة.

كــأن الأمــرَ لم يســتـغـرق إلا دقائــقَ، رغمَ وطأة الوقت، وتثــاقُله، والإجهادِ، بسرعة.. انتهوا إلى بَسْطَةٍ من الحجرِ المستوى، جَدرانٌ مرتفعة تُمكّنُهم من فَرْدِ قاماتهم إذا استطاعــوا، ذلك أن أجسادَهم تكيّفَت بدرجةٍ

ما مع ضيق المرتقيات، والوَضع شبه المنحنى الذى اضطُروا إلى اتخاذِه، ما من مَصدرٍ بادٍ للضوء الذى ازدادَ كَثافة.

إلى اليمينِ بَابٌ مُصمَتٌ.

إلى اليسارِ بابٌ مُقابل، كأنَهما الظلُّ والأصلُ، متماثلان، متواجهان، كالصوت والصدَى.. على الجدران طلاءٌ أحمرُ لأشكالٍ يَصْعُبُ تحديدُها، توقّفَ كَلٌ منهم حولَ الفُوَّهَة الدائرية المؤدّيةِ مباشرةً إلى أسفل، هل كانَت موجودةً فى مُنتَصف البَسْطة الحجرية أم ظهَرت الآنَ؟

ما من تفسيرٍ، ثم .. ما أهميةُ التحديدِ إذا انتَفَى الخيارُ؟

التفتَ المقدّم إلى الآخرين، الكُلُ مُعتَصمٌ بالصمت، ما كانَ يحدوهُ وقعَ بعضُهُ، طولُ الصمت وفُقدانُ الرغبةِ فى الكلامِ، يومًا.. أَخْبَرُه شَيخٌ مغربّى جاءَ من أقصى بلاد الغربِ بقَصد الفُرجة على الأهرام بخطورة الصمت، إذا وقَع خاصةً عندَ الرَحيل أو الخروجِ إلى الجهادِ فتلكَ علامَةُ شُؤمٍ، قالَ المغربّى الأسمرُ، مثلثُ اللحية، ناصع الابتسامة، كأنه يراه أمامه الآن، إنه خرج يومًا مع نفرٍ من صَحبه فأوغَلوا فى الصحراء الجنوبية لغرضٍ يعنى القومَ، كانَ مُقَّدمًا عليهم، عَيّنَه الشيخُ. اضطرتهم الأحوال إلى الإقامةِ فى مكانٍ مُنقَطعٍ قُربَ عينِ ماءٍ صغيرة. كانوا فى انتظارٍ مدَدَ لم يأتِ، خَشىَ عليهم من الانتظار، أمَرَهم بتنظيفِ الرمَال، أبدوا دهشةً، لكنه أَصَرّ، أكّدَ أنها تعليمات الشيخ التى لا يمكن ردّها، بعد فوات المدة أخبَرَهم بالسبب الذى دَعاهُ إلى هذا الأمرِ الغريب، فلو تركَهُم سينفردُ كلٌ منهم بذاتِه

فيمُـعنُ ويرحَلُ ويحِنُّ فيضـعُفُ عن المواصلةِ، هَزُّوا رءوسَهم ولم يتندَّر أحدٌ.

لكن الفرقَ بيِّنٌ. كانَ المغربُّى فى الصحراء ومكثُوا، لكن داخلَ الأهرامِ ليسَ بوسع المرء إلا السَعْىُ، إلا الحركـةُ، إلا الخطو، إلا التقدُّمُ على أمل بلوغِ الغاية، وتـلكَ تختلفُ من شخصٍ إلى آخـر، فالبعـضُ يوغلُ طَلَبًا للكُنوز الدفينة. والبـعضُ يُقْدمُ بحثًـا عن العلومِ القديمة، وآخرون يَبـغونَ الوقـوفَ على المجهـول، فى كـافة الأحـوال لا يمكن لمن وَلَجَ الأهَرامَ أن يكُفَّ، أن يتوقف، عليه أن يستمر أو ينُكص، الأهرام كالجسر، والجسورُ للعبورِ، ليسَت للإقـامة، وكل عابرٍ يسعى مُقَلقَلاً، غـيَر آمنٍ بدرجةٍ ما، فالأمانُ دائمًا للوصولِ، لا يكونُ أثناءَ الانتقالِ.

ليسَ بوسـعهم إلا النزولُ، طالما أنه ليسَ بمُكنتـهم اختـراقُ هذا الجدار الصَلْد أو فَتْحُ ذَلك البابِ الوهمىّ الذى لا يؤدّى إلى شىء، ليسَ أمامَهم إلا أن يتقدّمـوا من خلال تلك المساربِ والمرتقيات والمهـاوى التى صِيغَت خِطَطُها فى أزمنةٍ لم يعرفوها، ومن آخرينَ لم يلتقوا بهم قط!

عندَ كُل حافّـة، عندَ كُلِ مدخلٍ، يسـتعيـدونَ ما كانَ منهم، خـاصّة صاحِبَهم، تُرَى. أينَ هو الآنَ؟

لا يعرفونَ ما جرى له، لا يُلِمُّونَ بمصيرِه، ومن أينَ لَهُم ذلك؟

لو قَرّرَ بعضُهم العودةَ فأى يَقينٍ يؤكّدُ لهم أنَ الطريقَ الذى سلكوهُ فى المجىء هو عـينهُ الذى يرجـعـون منه، هل سـيؤُدّى بِـهِم إلى عينِ نُقطةِ البداية؟

كما عاينوا وشـاهدوا ثَمّةَ فتحات تبدو فجـأةً، ودهاليز تطولُ بأكثر مما قدّروا لها، فماذا يضمنُ لكلٍ منهم صحةَ طريقِ العودة.

فى الغُرفة الأولى قال أحدُهم ضاحكًا:

وهَل الخروجُ من الأهرامِ مثلَ الدخولِ إليه؟

يبدو الهَزْلُ جداًّ الآن، بتأثيرِ، الإجهاد والضوءِ الغامض والرهبةِ يتعرّفُ كلٌ منهم إلى صاحبهِ بصُعوبة، لكلٍ عند الآخرَين صورتان، الأوَلى تَمُتُّ إلى ما قـبل دخولِهم ومَـوَقعُـها المُخـيَّلَة، وثانيةٌ يَقَعُ البـصرُ عليـها الآن مضـاعفة بشـروط المكان والفراغ وسريان الهـواء، وكل ما يأتى أو يذهَبُ عبرَ المساربِ الخفيةِ التى لم يُلمّ بها كائن.

ما مِن بَديلٍ للاستمرار.

فى زمنِ التحضير والتأهُّب. قبلَ عبورهم النقبَ، أخبَرَهُم مقدمُهم عن ثلاثة دخلوا فى زمنٍ قديم ثم غَابت أخبـارُهم تمامًا حتى ظنّ قومُهم أنهم من الهالكين، بعد أربعينَ سنةً كاملة ظهرَ أحدُهم قربَ صحراءِ أبى صير، قِيلَ إنهُ خـرجَ من نَقْبٍ مجهولٍ، مُـغطَى الآنَ بطَمْى النيلِ المترسّب. لَزِمَ الصمتَ ولم يُخبر بشيء!

مَن يدرى؟

ألقَى بالحبْلِ، نزلَ مُتـعلِّقًا به، انتظرَ الخمسـةُ ظهورَ الإشارة. لم يطلْ وقوفُهم، جذبَ مـقدمُهم جَسُورُ القلبِ الحبْلَ مرتين، عندمـا استقروا إلى جواره أدركوا أنهم ينتقلون من حيرةٍ إلى حيرة.

الحيّزُ غريب.

لم يقفوا بمثله من قبلُ، لا يمكنُ القولُ إنه مستديرٌ أو مُربَّع، كان جامعًا لأشكالٍ لم يعرفوها قط. ما بَلْبَلَ خواطِرَهم رؤيتُهم حيرةَ مقدمهم لأول مرة، عهدُوه ثابتًا، مكينًا، لا يمكنُ التنبؤ بما يجولُ عندَه، حتى صَعُبَ عليهم استنتاجُ ما يُفكّرُ فيه لم يكتم عَنهم خواطره فقط، إنّما أوجاعه أيضًا وما يضايقه، عندما تَبِعواَ بصرةَ الحائرَ أدركوا ما يجعلُه ضاجّا، مُقَلقَلاً.

إلى أين.. وكيفَ؟

لأولِ مرةٍ يواجهونَ فتحتين كأنهما انشقّتا للتَوّ، في آنيةٍ واحدة، متساويتين تمامًا، الأولى إلى اليمين والأخرى إلى اليسار، هذا أمرٌ نسبى، بالقياس إلى أيديهم وعيونهم، فلا يمكنُ تحديدٌ دقيقٌ للجهة داخل هذا العُمق من الهرمِ، ما يُمكنُ اعتبارهُ يمينًا عندَ هذا ربما يكونُ يسارًا عندَ ذاك. للجهاتِ داخلَ الأهرامِ مقايِيسٌ مغايرة تمامًا، إدراكُها لم يَتِمّ بعدُ.

إنها المرةُ الأولى التى يجبُ أن يَتّبعوا طريقين. هذا ما استقرّ رأى مقدمِهم جميعًا حتى الآن، قالَ بعد إشارته إلى الفتحتين إن هذه دعوةٌ، وتلكَ دعوة، ولابدّ من تلبيتهما، لم يبذُل جهدًا ظاهرًا فى الاختيار، أو اتخاذ القرار. بدا مُتعجّلاً. ميّالاً إلى الإسراع، غيرَ ساعٍ إلى النِقاش.

انقسما.. بعد إشارته إلى أقرب الواقفين وإلى مَن يليه، طلبَ من الثلاثةِ الآخرين أن يُعيّنوا مُقدمًا لهم، قبل أن يتناقشوا أو يشرعُوا فى اتخاذ قرار تَقَدّم. تَصَرّفٌ حاسم كأنه رَتّبَ له من قبل. كأنه أعدَّ لمثلِ هذه

اللحظةِ، لم يَجْرِ عِناقٌ، لم تُلْفَظ كلماتٌ، فقط . مُجّرد تلويحٍ خافتٍ بالأيدى.

ممرٌ أسطوانىٌ مكْسُوّ بحجرٍ أبيض مَشُوبٌ بصُفرةٍ، رَغم التعب، وارتجاف العضلاتِ نتيجةَ الانحناءِ القَسْرِىّ، إلا أن السَّعْىَ كان أسرع بالنسبة إلى المراَحلِ السابقة، بدا المقدم واثقًا رغمَ أن كلَ ما ينتظرُهُم مجهولٌ.

كلٌ من الثلاثةِ كانَ يفكر فى صَحْبِه الآخرين. إلى أينَ وصلوا؟

ماذا لقوا؟ نقطةُ الفراقِ باعثةٌ على أَسَىً ممدود. ومحاولةُ استعادة بعضٍ مما كانَ، خاصّةً أنّ هاجسًا يَقينياً يتجولُ لدى كُلٍ منهم الآن باستحالةَ اللقاءِ مرةً أُخرى، وأنّ ما كانَ صارَ مُستحيلاً. وهل افترقَ قومٌ داخلَ الأهرامِ والتقوا من قبلُ؟ هل سمعوا بمثلِ ذلك؟

مع استمرار المُضىّ عبرَ دهاليزَ أسطوانيةٍ أو مهاوٍ عميقة أو فتحاتٍ تبدو فجأةً، يغيب كل من ذَهب عن الأذهان. يَعمُقُ الاستغراقُ. يؤكّدَ مُقدمُهم أن هذه الممراتِ والمنافذ ستُؤدّى بهم إلى غايةٍ. كافة ما اطّلَعَ عليه فى كُتُبِ المطالبِ والطلاسمِ يؤكّدُ ذلك.

إنهم الآنَ أقَلُّ قدرةً على تبادُل الحوار. توارَى أىّ تفكير يخصّ زملاءهم الآخرين. أو المراحل المنقضية والتى اختلفَ إحساسُ كلٍ منهم بها، غير أن يقينًا شملَهُم يخصُّ الزمانَ يؤكّدُ أن إيقاعَه يزداد سُرعةً كُلّما أوغَلوا، وأنّ التمييزَ بينَ الليلِ والنهارِ صارَ صَعْبًا، وأنّ الشروقَ والغروبَ لا يتمّان خارجَهم إنما داخلَهم، فلم يَعُد للاستفسارِ القديم: ليلٌ الآنَ أم

نهار؟ أيّ معنىً، يُمكِنُ لكلٍ منهُم تحديدُ مـا يَمُرّ به، فيمثلون فى اللحظة نفسها لكن يكون عندَ هذاَ ليلٌ، ويَصـير نهارٌ عند ذلك. يقينٌ آخرُ يخصُّ المكانَ، يقينٌ ثُبُوتيٌّ يُؤكّدُ أنَ مراحلَ الارتقـاءِ ولَّتْ، وأنهم يتحركون الآن فى عُمقٍ أهرامى مُتّجه إلى أسفلَ، ربما تجاوزوا مستوى اليابسة التى خَطَوا فوقَها طويلا قـبل إيغالهم فى العُمق الأهرامىّ، ما حيّرَهم أحـيانًا مَصادرُ تلك الرياحِ الخـفيةِ ومسـاراتها، كـذلك درجاتُ الضوءِ ومـنابِعه، وذلك التدفُّقُ البادى من مقدمهم الذى لم يَعُد يتطلّعُ إليهم.

من مهوىً إلى آخـر، من مَمَر إلى مَمَر، من مُـثلّث إلى مُستطيلٍ إلى دائرة، من قُمْعيٍ إلى حَلَزونىّ، من مثـمن إلى مُسَدَّس إلى مُربّع، إلى ما يَصعُبُ تَوصيفه.

لم يَعُد المرورُ بالغُرَف مُثيـرًا، ما أكثرُها، مع كلِ خطوةٍ تُولّى خطواتٌ أقدَم، تندثُر تمامًـا من الذاكرة، تُمَحْى من المُخَـيّلة، حتى اختلطَ عليهـما الأمر، شَكَ أحدُهما فى وجودِ رَفقَة سابقة، وظنّ الثانى أن عهدَه بالأهرامِ قديمٌ، وأنه بذلَ الجهدَ فى إدراكِ مَا أَلَمّ به من قبل.

عندَ حلول لحظة ومـوضع توقُّف المـقَدم، يرفعُ يـديه أمامَ وجـهِـه إنهُ مفاجأً بكُلّ هذا السُطوعِ المباغَت حتى ليكادُ يَعْشَى.

هذا ما وَرَدَ التنبؤ به فى بعض المخطوطات العتـيقة، فقط تلميحٌ من بعيد، لم يَصِـفها أحدٌ لأن بلوغَهَـا ظَلّ فى دائرة اللاممكنات، لم يذكُر مـخلوقٌ بدقة هذا الامـتـزاَج، وذلك التداخـل، ما هذا كله إلاَ ثمـرةِ للسَعَى، للصـبر، للمجاهدة، يمكنُه مـصارحةُ صَحْـبه الآنَ، القول إن

جهـادَهم وإقدامَهم وبَذلَهم لم يَمـضِ هَباءً، كان داخلَه فَـيْضٌ يَصَعُبُ استيعابُه.

لا يعنيه الآنَ عُلويةُ الحـركة أو سُفليتُهـا، تتشابَهُ عندهَ الجهـاتُ، كافَةً الممـرات تُؤدّى إليه، ويدلُّ هو عـليَهـا، تبدأ منه وعـندهَ تنتهى، تتـراصُّ الأحجارُ داخِله ويَصل بينَها يتوزّع خلالَها، عَبرَها. ينتهى الآنَ إلى صميم الأهرام السيّـال، المنَصهر، الدائم، الذَى لم يُعـثَّر عنه بشرٌ من قـبلُ، فلا اللّقَطْ ولاَ الرَّسمُ ولا الإيماءُ ولاَ التصريحُ ولا القيامُ ولا القعود.

أوغَلَ فى الأهرامِ، وعَيَنُ الولوج تُدركُه، ما هو إلا ذرات مكونة. هو هو. وهنا هناك. وهناك هو. تكتـمل استدارَتُهُ، فَتلتـقى النقطةُ بالنقطةِ. وتكون الالتفاتةُ إلى الالتفاتة.

لِيُخبِرَ زميليه.. ليُطلعهما، ليرى ما عندَهما.

لكن.. عبـثاً رؤيتهمـا، لا يُواجِهُ إلا نفسه، إنه بمفـردِه تماماً، مُنْبَتّ، صاَغِر.

مَن يَصلُ إلى هنا لابد أن يكونَ وحيـدًا، مُنقَطِعًا، تلك اللحظة، هذه المسافةُ مِن غَورِ الأهرامِ.. لا تَحتَمِلُ الرفقةَ.

* * *

مَتنٌ ثالث

تَلاشٍ

.. عائلة أمرُها قديمٌ، ذائع، مَذكورٌ فى كُتُبٍ ماتزالُ مخطوطةً لم تُطَبع بعدُ، أما شأنُهُ فمعلوم، رائجٌ داَخلَ البلادِ وخارِجَها.

يُؤكّدُ مَن لَهُم خبرةٌ بتَسَلُّق الجهات الأربعِ أن نبوغَه ظاهرٌ، ولخَطْوه فوقَ الأحجار إيقاعٌ مُغاير، ورَغمَ التاريخِ الطويلِ لأجدادَه إلا أنه جاء بمالَم يُقَدِم عليه أحد، فَلم يحدُث قَطّ أن تَمّ الوصولُ إلى القمةِ ليَلاً.. ومتى؟

فى الليالى المعتمةِ، الخاليةِ تمامًا من القمر، وأضواءِ النجوم القَصيّة.

يعرفُه كُلٌّ مَن لَهُ صِلَة، علماءُ الآثار المتخصصون، ضباطُ وجنودُ الشرطةِ المكلّفون، أو القادمون لمهمَاتٍ عابرة، معظمُها لحماية الشخصياتِ الكبيرة التى تجيءُ عادةً للفُرجة، وأصحابُ شركات السياحة، وقُدامى المرشدين والأدلاّء والمترجمين، وأجانبُ من بِقاعٍ شَتّى تَردّدوا على الأهرامَ مراتٍ، وصاروا مشدودين إليه.

حَرِصَ على رؤيته رؤساءٌ وملوكٌ وأُمراءُ، ونجومُ سينما عالميون ومحليّون، ومصمموَ أزياء، وخبراءُ عطورٍ، وأثرياءُ يمتلكون مراكبَ عابرةً، وأُخرى راسية. يُعلّقُ فى صالةِ بيته خطاب شكرٍ مُوجّه إليه من الديوانِ الرئاسىّ، يشكرهُ على المجهودِ المُضنى الذى أبداه فى تسلُّقِ الهرم الأكبر سبع مراتٍ متعاقبةٍ لا يفصلُ بينَ كَلٍ منها أىّ استراحةٍ. أمامَ ضَيفِ البلادِ الرئيس الأندونيسىّ أحمد سوكارنو.

الثناءُ قديمٌ عند أجداده، ذَكرَ البَلوىّ فى تاريخهِ أن ابنَ طولون أثنَى على أحدهم وأُعجِبَ به، وتَرجَمَ المقريزى لواحدٍ منهم فى «المُقَفّى» الذى

مازال قسمٌ غيرُ هيِّنٍ منه مفقودًا. قال المقريزى إن الناصرَ محمد كان يخرجُ إلى الجيزةِ خصيصًا ليراه ويتابعهَ. أما نابليون بونابرت فنصحَ علماءَ حَملَتِه برَسمِ جَدِّه الرابع، لكنهم لم يتمكّنوا لسُرعته، وخفّته وقُدرَته على الإبهارِ.

أُسرَةٌ مُوغلَةٌ فى المهارة. وتوارث المسارب المؤدّية إلى القمة. عندَ سِنٍّ معينة ـ ربما السَابعة ـ يُلقّن الأبُ وَلدهَ الخُطَى الأُولى ثمّ يُوغِلُ شيئًا فَشيئًا حتى يُصبحَ الطموحُ المستمرُ تقصيرَ المدة.

يقول بعض من لهم دراية بالعلامات الخفية والطلاسم، أنها تنقص كل مائة سنة مقدارَ دقيقة، لم يكن الأمر سهلاً، مجرد تَخلخُلِ حجرٍ من مكانه، أو تآكُلُ حوافٌ آخر يُطيلُ المسافَة أو يختصرها، بالإجمال.. يحيدُ بالخِطّة.

ما أقدَمَ عليه هو، ما انتهى إليه جعلَهُ مثالاً يُضرَب، وقُدْوَةً لمن سيأتى بعدَه، إذ أمكنهُ اختصارُ المدة مرتين خلالَ عَشَر سنوات، من ثمانية دقائق إلى سبعةٍ ونصف، إلى سبعة.. هَذا توقيت غيرُ مَسبَوقٍ بالمرة، لم يُدونُه مَرجعٌ قديم أو حديث، صارَت قدرَتُه علامةٌ على بلوغِ المُرام الوعر فى الزمنِ القليل.

مَشَت سيرتُه بينَ الناسِ، فأعجبوا به، ومالوا إليه، وكُثرَ الثناءُ عليه.

كانَ وحيدًا، لا أشقاءَ لـه، جاءَ بعدَ انتظار سنوات سَلّمَ خلالَها والداه بقضاء الله وقَدَره، عندما وصلَ خافا عليه العينَ والحَسَدَ، أحاطاه برعايةٍ وحَذَر، لم يرتَد قط الثيابَ الزاهية، إنما كان ملفوفًا فى الملابس السوداء.

وسُمت جَبهتُه بدوائر البُن الغامق، كذا وجنتاه، ومقدمة ذقنه. رغمَ حرصِ أمهَ عليه من رقّة الهواء، من النسمةِ الساريةِ إلا أنها رفضت إطلاقَ اسم أُنثى عليه، وأن تُخفى ذكورته بملابسِ البناتَ كما اعتادَتْ قليلاتُ الخلفة، مع أنها لو أقْدَمت لما شكّ الأقربون. فالولَد كانَ مُستديرَ الوجه، واسعَ وعميق العينين، مليحَ التقاطيعِ، يؤكّدُ كلُّ مَن رآهُ أنهُ كانَ دائمَ التطلّعِ إلى جهةِ الأهرام، إلى الغربِ، لو حملتهُ أمهُ يستدير، إذا حَادَت بهِ يرتفعُ صُراخه. مع الوقتِ أدركَت فلم تُرضِعه إلا إذا جَلَست وظهرُها إلى الأهرام. عندئذ تَعلَقُ شفتَاه بثديها، وإذ يكتفى يُدرِكُهُ النومُ العميق.

هل كان مشدودًا لأمرٍ خفى لا يعلمه؟

هل كانَ يُلبى نداءً لا يُمكن لآخر سَماعُه؟

أم هو تراث أجداده الأقدمين الذين وزّعوا أيامَهم وأفنَوا أعمارهَم فوقَ تلك الأحجارِ؟

لا يمكن لأحد القَطعُ، وإذ يُصغى إلى ذكريات أُمّه عَنه، تُحاولُ استفزازَه. دَفعَهُ إلَى النطقِ، إلى التفسير، لم يُقابلها إلاَّ بابتسامةٍ قانعةٍ، راضية.

لم تَدْر أمهُ إذا كان يذكُرُ لحظةَ فطامه، عندما تَبِعَتْ وَالدَه قبلَ الغروب وأوغَلا سبعَ خطواتٍ داخلَ المُرتقى. كَشَفَتْ ثديَها الذي دَهَنَت حُلْمَته بالصبّار المُرّ، تَرَدّدَت صرخاتُه ـ ياعينَ أمه ـ لكنه خطا خُطوةً باتجاهِ كينونتِه الغضّة الخاصة.

لم يُخفِ والده سرورَه المبكّر بارتباطِ وَحيده، اتجاهِه الدائمِ إلى

الأهرام. لذلك لم ينثن، أقدَمَ على تلقينه أسرارَ المَسالك المؤدّية، قيل إنها أربعةٌ. ويؤكّـد آخرونَ أنها ثمـانية، لِمن أتْقَنَ. فى الثـامنة صَحبَـه حتى المنتصف، فى العـاشرة وقفَ إلى جواره فوقَ الذروة، حـيث تنتهى المَادّةُ ويبدأ الفراغ. أشـار إلى المعالَم الدانية والقصـية، عندما بلغ الثانيـة عشر أصبحَ باستطاعةِ الأب أن يقعُد بين الزوار المتفرجين، أن يُتابَع خُطى ولدِه، قفزَه الرشيقَ من حجرٍ إلى آخر. فى الطلوعِ أو النزولِ.

بدا وكأن المـهارات المندثرةَ والمتـوارَثةَ انتقلَتْ إليـه واستقَـرّتْ عندَه، تعلّمَ القـراءة والكتابةَ، وأُعجِـبَ به أساتذته، قالوا إنـه عاقلٌ. رزين، يَسبقُ عُمرَه، كثيرُ الصمتِ والاقتصاد فى الكلامِ والصيانةِ.

مرةً واحدةً انزعج والدهُ لسؤالٍ مُفاجئٍ لم يتوقّعه:

هل تسلّقَ أحدُ أجدادى الهرمَ الأوسَطَ؟

لم يشأ والدهُ أن يُظهِـرَ انزعاجَه، أن يُفضىَ إليـه بالمحاذير الكامنة وراءَ صُعودِ هذا الهرمِ بالذات. مازال جزءٌ من الكسَاء ورَدى اللونِ، الجرانيتىّ، المغـمور بالأشكـالِ والحروف يُغطّى قـمّـته، لم يَرغَـبَ فى التهـويلَ ولا التخفيفِ، إنمّا قَصدَ أن يَتّبِعَ الصدق، ألاّ يُخفىَ عَنهُ أمرًا، لكن بِحَذَر.

فى الولد شىء غامض، يجعَلُ المُسّنين، المُهـابين يلزَمونَ الصَمْتَ عندَ ظهورِه، يبدونَ الودَّ ناحيته. يُعـاملونه باحترامٍ، أَطلَعَهُ والدُه على الواقعةَ الوحـيدةِ التى جَـرَت منذ ثلاثةِ أجيـال، عندما أقـدَمَ أحـدُ الأبناءِ على الصعودِ.

لم يُبد تحذيرًا صريحًـا، لكنه خَشىَ أن يُقدمَ على المحاولة، لكن رغمَ

عودةِ الابنِ الغالى لـلاستفسار والتَـقَصىّ إلا أنه لم يَشْرَع، كان اهتـمامُهُ الدائم بالهرم الأكبر، خـاصة الذروة، المنتهى. كثيرًا ما صـعد إليها بدافعٍ من عنده وأمضى الساعاتِ الطوالَ مُنفردًا، وهذا ما حَيّر أباه وأخاف أمه، خاصةً صَمتهُ المكين، وقلّة بَوْحه.. يُثّبتُ بصرهُ تجاهَ الأهرامِ ولا يحيدُ عَنهُ بالسـاعاتِ، مما أَقلَقَ والديه حـتى أن أمه سَعَـت سرًا إلى الشيخِ المـغربىّ لإعداد حـجابٍ يـقيه المـهالك، وبَغـتاتِ الزمن، لكن المغـربىّ، المرابط. المتـوحّدَ بالوقـتِ، والصَمت، قـال لهـا إن ابنها لـيس فى حاجـةٍ، لأنه موعود.

موعود بماذا؟

لم يُفَسِّـر المغربىّ. لم يَشْرَح، هكذا هم، يـصَعُبُ استخـلاصُ الحقيـقةِ منهم. لم يُنه ذلك قَلقَـهمـا الدائمَ عليـه. خاصـّةً والده الذى لَزمَ الدارَ مع وَهَنه، وتَضَعضع أحـواله، لَكَم انتهَت إليه أمورٌ غـريبةٌ راجَتْ وشاعَت عن أجدَاده السابقين، لكن لم يسـمع عَمّن يُشبه ابنه. مازالوا يَقُـصُّونَ عن جَدّه الثـانىَ ذى السـاق الواحدة وقـدرتهِ على تَسَلُّق الأهرام، قـفـزًا وانحناءً مع استناده إلى الحجارةِ الضـخمة المتراصّة، وإقَامة جَدّه الثـالث لمدة شهر كاملٍ فوقَ الهرمِ الأكبر. لم ينزل مرةً، ولم يُزوّدّه أحـدٌ بكسْرَة خُبز أو شَربة ماء. لم يَبُح لمخلوقٍ بمصـدر زاده، وقالَ البعضُ وأكّـدوا أن طيورًا خضـرًا كانت تُزقّقُه بالثمر والقطر. يُؤَكّدُ الرُواةُ أن الذُروةَ لم تكن تَتّسعُ وَتَتّذ إلا لشخصٍ واحد، كانت نظيفـةً مجلُوّةً كأنها لم تَنقُص شبـرًا. سَمعَ عن أحدِ الأقاربِ الذين سَعَوا فى زمنٍ بعيد، دخلَ وغابَ، حتى انقَطع كُلُّ رَجاء فى عودتهِ، لَكنه ظهَر بعدَ أربعةِ وعشرينَ سنةً أمضاها كُلّها فى عمقِ الهرم.

أيـــن؟

لم يُجب.

كيـــف؟

لــم يُفسِّر.

أبدى الولدُ اهتمامًا بجَدّه الذى انقطعَ فوقَ، عندَ المُنتَهى شهرًا بأكمله، صحـيحٌ أنه لم يُلِحّ فى الأسئلة، لم يستـفسر كثـيرًا، لكن اللفظَ المنطوقَ عندَه يعنى الكثيـرَ من شخصٍ طويـلِ الصمتِ. عندَ إفـضـائه بمثلِ تلك الاستفساراتِ تَشْخَصُ أمهُ مُتطلعةً، واجِفةً، حتى لتحبسَ أنفاسها.

قال أبوهُ إن إبداءَ مثلِ تلك الخشيـة لا محلّ لها الآنَ، الولدُ عاقل وإذا كانَ يتسلق بمفردِه، ويجتاز هذا الارتفاعَ الوَعَر، ويُبدى من الهِمّةِ ما جَعلَه مَوضعَ إعجابٍ وطَلَب. فلا داعى لإظهارِ خوفٍ لا يليقُ إلا بالصبيةِ.

تقولُ أمه إنه سَيَظَلُّ صَغيرًا بالنسبة إليها، حتى بعدَ زواجه وإنجابه البنينَ والبنات، عَجّلَ اللهُ بيومِ فرحه بعـد أن يرزقَه اللهُ بابنةِ الحلالِ التى تصونهُ وتُريحُ بالَه.

مرةً واحدةً قالت إن طولَ صمتِه يُقلقُها.

مَن يَرَهُ أثناءَ تَسَلُّـقه لا يخطُر بـباله قُـدرتُهُ على السكـوت، صعـودُهُ مختلف، يسـتمتعُ والدهُ بمتابعته. بمجـرّد مُلامَسَته أحجـارَ الهرم. تَسرى عنده حيـوية وتُهْدَرُ طاقةٌ، يخفُّ، يَثب، لا يتطلّعُ إلى أعـلى. لكنه ينتقلُ برشاقةٍ مُحيّرة. كأنـه يَتبعُ صوتًا خَفيًا يدلُّه. أو يمدُّ يَدَه إلى أكُفّ لا يراها

إلا هو، ترفعهُ عندَ مـواجهةِ حجرينِ مـتلاصقَين، مرتفـعين، يجبُ القفزُ فوقَهمـا لاختصار جزُءٍ من ثانية. بل إن لونَ بشرته ليتَـغيَّر، قُربَ الذُروة يُصبح شبيهًا بـلونِ الأحجارِ التى فَقَدَت غطاءَها منذُ زمن، لونٌ وَسَط بينَ الأصفرِ والأبـيضِ والبنىّ، أحيانًا لا يمكن توصيـفه بدقة. كأنه قُـدَّ منها، مُتَصلٌ بها عبـرَ خيوط غيرَ مرئية، ياسلام.. لولا سـرحتُه الدائمة تلك، وذَهابُ عينيه إلى بعيدٍ، لفارقَ الدنيا مُطمئنًا عليه.

الحقُّ.. لم يُبالغ والداه فى خَـشيتهمـا. كانا يرقبانه بدهـشةٍ، بحذر. بخوفٍ من وقوعه فى الجذبة. أو استسلامـه لسيطرةِ قوة غامضة لا يعرفُ مخلوقٌ طبيعتهـا. ولا تنفَعُ الأحجبةُ والأوراد فى دفَع أذاها. ليس كل ما تَضُمُّه الأهرامُ وتلك الجبانات مكشوفًا، مُباحًا.

كان مُتَعَلقًا بالأهرام، دائمَ النظر إليـها حتى وهو فوقَها، لا يكُفُّ عن الطوافِ بكبـيرها وأوسَطهـا وصغـيرها. المكتـملِ منها والناقصِ، الخـفىِّ والظاهرِ، مـثلُ هَذا الشُغلِ غـيرُ جَديد، لا يُثـيرُ، فـهو ابنُ عائـلةٍ قديمةِ الصلة. كـان مـحـورُ تفكيـره مـن نوعٍ آخـر، بما وراءَ هذه الأهرامِ، لم تستغرقه الأُمور التى تشدّ انتباه مَن يُـمَاثله عمرًا، حتى مراهقته لم تَحدث تلك المطبات التى يقـعُ فيها عـادةً مَن ينتقلُ عَبـرَ أطوارِ العُمر المخـتلفة، خاصةً من الصبا إلى الرُجولةِ.

فـتيـاتٌ ونسـاءٌ من أجناسٍ شتـىّ تَعَرّضنَ له صـراحـةً، وتعلّقنَ به، إحداهُن عَـرَضَت عليه مُصـاحبَتَهـا إلى ألمانيا، ولَهُ ما يشـاءُ، ما يطلبُ، أحوالُهـا ميسورةٌ، ولا تـكُفّ عن الرحيلِ وزيارة البلدان بهدف الفُـرجَة،

والمشاهَدَة. أُخرى مـن اليابان ماتزالُ تَبُثُّه هُـيَامَها عبـرَ خطاباتٍ تصل إلَيه بانتظام، تحتلُّ مـركزًا سيـاسيًا مرمـوقًا فى الحزب الحـاكم، بل إن رجالاً هامـوا به، جاء بعـضهم لرؤية الأهرامِ فلم يروا إلا قـوامَه، ورشـاقَتَـه، وملامـحَه التى تبدو كـأنها خرجَتْ من جُدران مـعبدٍ فـرعونىّ. هكذا وَصَفَهُ مسئولٌ كَبيرٌ بحلفِ الأطلنطىّ، يسكنُ مدينةَ لوكَسمبورج.

كان يعرفُ جيـدًا كيف يكونُ الجوابُ، سواءٌ كانَ اعتـذارًا رقيقًا، أو نهرًا حازمًا، قـاطعًا، يعرف كيف يُعَبّر عن نفسه جـيدًا من خلال إتقانه أربعة عـشر لغةٍ، يُجيـدُ الحديث بمعظمهـا ولا يكتبها شـأنَ أبناءَ المنطقة المخـالَطين للأجـانب القـادمين من كل فَجّ، إلا أنه تميّـزَ عن الآخـرينَ بقُدرته على قـراءة النُقوش. ونُطق الهيـروغليفية، تَـعَلّمها من مُفـتّشى الآثار القُدامى الذين قَرّبوه واستعانوا به فى مهام متعددة، هو مثلاً الذى حدّد موضعَ الحـجرِ الساقطِ يومَ الزلزالِ الشهـير، مسئـولٌ كبير بالهـيئة العامـة للآثار ـ رحمه الله ـ صافـحه بعدَ نزولِه، تَطَلّع إليـه ثم خاطبَ المحيطين بهِ قائلاً:

«إنه يعرفُ عن الأهرامِ أكثرَ مما نعرفُ كُلّنا»

هل كان الرجلُ مُلِمًا ببعضِ مكنونِه؟

بالتأكيد لا، لأنه لم يجلس إليه، لم يسمعَ منه، لكنه تلقّى عنه بعضَ الإشارات فأدرك واسـتوعَبَ. من عباراتٍ تفـوّهَ بها، من دلائل أُخرى لا يمكنُ الإحاطةُ بها جُملةً.

عندمـا بدأ يُفضى لوالده أخـفَى الرجلُ جَزَعَـه. تقدّمَ فى العُـمر إلى

درجةٍ لا يُمكنه عندَها إلا الإصغاء، ماسَـمِعهَ أثار عندهَ أصداءً لم يبحُ بها لمخلوقٍ.

قالَ إن هذا البناءَ الهـائلَ من الحجر سواءً كـان الأكبرَ أو الأوسطَ، إنما هو مجـرد أمر ظاهرٍ لشيء آخر، لمعنى. . ربما، لتكويـن، لحقيقـةٍ، لقوةٍ ما. . يجوزُ هذا كله، لا يُمكنه التحديدُ، لو عَلَمَ وأحاطَ لاستقرّ وهدأ.

لم يكنُ دافعهُ ومُـحركه لصعود الأهرام، وحـفظ المسالك، تجاور المُدَد المعروفة، المدوّنة من أجلِ مـواصلة دَوَرٍ مُتوارث، أتقَنَهَ الأجدادُ كـمصدرِ رزقٍ، وانتزاعَ الإعجاب من غرباءَ عـابرين، إنما كان وسيلةً للوقوفِ على ما يبـحث عنه، ما يَقُضُّـه منذ أن وَعَى وأدركَ الفَرقَ بينَ الأصلِ والظلِ، بين المتبوع والتابع.

ما وراء هذا التكوين؟

لماذا جاءوا بهذا الشكل؟

كيف تَتّصلُ المادةُ بالفراغِ؟

تلك القاعـدة الهائلة من الأحجار الضـخمة التى تَقلُّ كلمـا اتجهنا إلى أعلى. حتى تـنحسر الكُتَلُ الهـائلة، تتلاَشى عند حـّدٍ معين، بعـدهَ يبدأُ الفراغ، ينفد المحسوسُ القادمُ من أسـفل، ويبدأ اللانهائىّ، ليسَت القاعدةُ إلا نبتةً من العالم الأرضىّ، نبتـةً تَمُتُّ إلى الكوكب كافّةً، مُتصلةً بما هو أشمـلَ، وعندَ الذُروة تبدأ النقطةُ غـير المدركَـةِ بالنظر، مَاهى إلاَّ البـداية والنهاية معًا لما يُعْسُر على الأفهاَم إدراكُه أو استيعابُه.

تلك النقطةِ شاغله.

أرضيةٌ محسوسةٌ، أو لا مرئية.

جذِعُها ثابتٌ، أو غيرُ محدودةٍ، مُتصلةٌ بحوافّ الكونِ.

ألمحَ ولم يُفسّر، ربما لأنه لم يَشأ التصريح، وربما لأنه لم يُدرك. لم يستوعب، لابد أن أموراً أُخرى جالت عندهَ ولم يُلَمح إليها، لم يكَن باستطاعة والدهِ أن يُجادله. خاصةً بعد رحيلِ أمه الأبديّ. وتَضعضُع بُنيان الرجُل. عندما رأىَ ابنَه يقفُ فى الفناء لحظةَ انبلاجِ الخيط الأبيض من الأسود. لم ينطق، لم يسأله عن الجهة التى يقصدُها فى هذا الوقت، ربما أدركَ اللافائَدة، اكتفى بالتطلُّعِ، بالتزوُّد من فراهةَ حُضوره، وسُموقِ عزيمته، بخبرة الأيامِ الطوالِ التى قطعَها وعَبَرَتْه أيقنَ أنها اللَحظةُ التى أمضَى أزمنةً يَعُدُّ لها ويتحسّبُ.

عَبَرَ الباب، خرجَ إلى الطريق الصاعدِ، لم يتوقّف لحظةً، لم يلتفت إلى الوراءِ.

بدأ تسلُّقَهُ بسهولة، بيُسر، لا يصعَدُ الآنَ ليستعرضَ مهارةً. أو ليُبهر ضيَفًا. أو لِيُتقِنَ طريقًا جديدًا يختصرُ بهِ المدّةَ.

إنها تلبيةٌ، وإبداءُ جَوابٍ، ثمة دافعٌ غامضُ الكُنه. لم يَطلّع عليه شاهدٌ، ولم يلمَحْهُ راصدٌ، يؤدّى به إلى أعلى، إلى الذُروةِ، يُتقَنُ الوصولَ إليها عبرَ عدة مسالك تتخلّلُ تلك الأحجارِ التى تبدو للمُتطلّعِ الغريبِ مُتباعدةً رغم تلاصُقها، لكنها النظامُ عينُه.

فى طلوعه هذا لم يتّبع طريقًا أدّى به يومًا، إنما كان يتقدّمُ مُتخطيًا كل النقاط التى بدَا مستحيلاً الاقترابُ منها يومًا، ويؤكّدُ أبوه الذى زحفَ حتى بدايةِ الطريق، أنه كان باستطاعتهِ أن يراه رغمَ إعياء النظر، وغبشة الفجرِ، وانقطاع الأسباب!

يُردّد العارفونَ، المدركون لبعضٍ مما وراءَ الحُجُب، المتلمّسون اتجاهاتِ المصائر، أنه بمجرد وصوله إلى الذُروة، أقصَى المسافةِ المتاحة. تألّقَ عاكسًا ضوءَ الشرقِ الوليد كافةً حتى ليُمكن رؤيتهُ من بعيدٍ، من سائرِ الأنحاء، ربما ارتدى قميصاً يَمُتُّ إلى الأجداد. بدَا منه ما يُشبهُ الرقصَ فَرِحًا، كأنه يُدَركُ القمة أول مرة، هذه المساحة الضئيلة التى أمضى أحَدُ أجداده فوقَها شهراً بغيرِ زادٍ معروف، التى تلخص كافةَ ما يقعُ تحتَه، ما هو مُوغلٌ فى باَطنِ الأرض. وذلّك الفراغُ المَهيبُ، الذى لا يمكنُ حَدُّه، ويَطمسُ كلَ الفواصلِ، ويُسَوّى بينَ الموجودات.

لم تكن حركتـه الدائريةُ، المتوَثّبةُ تلك، إلا تمهيدًا لتلقّى تلك البغتات من الإشراقات المفاجئة، المتوالية، والتى أخذته من كلّ جانبٍ، تخلّلته، اجتاحتُه، دَفَعَت بهَ وإليه مُستَقَرّ النغم. ومصدرَ كلِ حُلمٍ، جذر كلٍّ توْقٍ، سرّ اندلاع الرغبةِ وانطفائها، والدافع لميلِ الغصن وفِراقهِ عن الجذعِ.

* * *

مَــتنٌ رابــع

إدراك

حَدّثنا الناصرىّ محمد أحمد بن إياسٍ الحنفىّ المصرىّ فقالَ:

بعدَ مجىء الخليفة المأمون إلى مصرَ وإخماده الفتنةَ، انشغلَ بأمر الأهرام جدا حتى أنه ضربَ خيامَه على مَقْربةٍ منها، وكَانَ يُكثر من التطلُّع إليها. والنظر إلى سُموقها. وتأمُّلِ الكتابةِ المنقوشة عليها بقلَمِ الَطير، وطافَ حولَها مرارًا، إما راكبًا يُحيطُ به حَرَسُه أو راجلاً منفردًا، مُحدّقًا فى أحجارها، مُتفكرًا فى أسرارها، مُتعجبًا من هذا البنيان، وقبلَ أنَ يُقِرّ رأيَه على فتحِ النقْب الذى يدخلُ منه القومُ حتى أيامنا تلك، أمرَ بقياسِ أبعَادِها بدقة، وخَصّصَ لذَلك يومًا معلومًا.

فيه خرجَ بكاملِ الأُبَهة، يُحيطُ به أركانُ الدولة، وعليَةُ القوم، وكبارُ الخَدَم مَمن جاءوا بصُحبَته، كَذلك أعيانُ أهلِ مصرَ، وحَشدٌ من الخلق سَعَوا للفُرجة، خيّموا فى المسافة الواقعةِ بينِ الأهرام الكُبرى وتمثالِ «أبو الهول»، ثم جاء المعلمون وبينهم قيّاسون من بغدادَ، وسَمرقَند، ودمشق و. . القاهرة.

اختاروا كلُّهم المعلّمَ ابن الشحنة، وكان حُجّةً فى هذا المجال، يمكنه تقديرُ المسافاتِ بالنَظَر، يؤكّدُ العارفونَ به أنه لم يُخطئ فى ذلك قَطّ تَلَقّى أسرار القياسِ عن أجَداده من قَبَطِ الصعيدِ الأَعلى.

أشارَ المأمونُ إلى الأهرام، قالَ بلهجةٍ تقعُ بين الأمر وطلب المعرفة بل. . والحيرةِ، مما جعلَ بعضَ شهودِ ذلك اليوم يؤكّدون فيما بعدُ أنه كان مُلِمًا بمالم يُفصح عنهُ من قَبلُ، وأنه كانَ يعرفُ بشكلٍ ما.

نظرَ ابنُ الشُحنةِ إلى الهـرمِ الأكبرِ الذى حيّرَ الأقـدمينَ والمُحدثَين، بدا معْنيًّـاً متمهّـلاً، وعندماً التفتَ إلى مَن حـوله لاحَ منه اضطرابٌ خفىّ لا يستـعـصى رَصـدُهُ على الفَطِنِ، اللـبـيبِ، طلبَ من المأمـونِ الإذنَ له باستخدامِ أدواتِ القياسِ، مُستحيلٌ إدراكُ المطلوبِ بالبَصَر، فأذنَ له.

قاسَ كُلّ ضِلعٍ مـن الأربعةِ، استـغرقَ وقتًـا ليسَ بالهيِّنِ حـتى تململَ بعضُ رجالِ الحـاشية، أولئك الحـريصونَ دائمًا على إظهـارِ ما يظُنّونَ أنه يجولُ بذهنِ سـيِّدِهم سعـيًا وتَقَرُّبـاً، غيرَ أنُه أشـارَ بيده، طالبًا الصَـبْر، والانتظارَ فالمهمة عَسِرَة، وليسَت كما تبدو.

أقبلَ ابنُ الشُـحنة فظنَ القومُ أنه سـيُبلغُ أميـرَ المؤمنين بالنتيـجة، لكنه وَسْطَ دهشة الكافّة طلبَ مُهَلةً ثانيةً فاستجابَ الخليفةُ. غَرُبَت شمسُ اليَوم الأول، عادَ بعدَ خُلُوّ السماءِ منها ليَطلُبَ فُرصةً ثالثة صباحَ الغدِ، قالَ إنه سيبدأُ لحظةَ الشُروقِ.

بَشّ المأمونُ وأظهَـرَ له المودّة والصبَـرَ، بل وأثنى على هِمّتِـه تشجيـعًا وحَصنًا له، فلم تَلُح أىّ نتيجةٍ بعدُ.

فى مطلع النهارِ التالى فـرغَ ابنُ الشحنةِ من مُهمّته كـما بدا عندَ إقباله على المأمونِ، قـال إنُه لم يُعاين فى حيـاته، ولم يسمع من الذين سبـقوه عن أى بناءٍ فى المعمورة يحوى تلك النِسَب الدقيقة، التماثل مَذْهل، مُثيرٌ للإعجاب بينَ الأضلاعِ الأربعـة، لكنه فى شَكٍ من شىء لا يَوَدّ الإفصاحَ عنه إلا بعدَ التأكّد.

أوماَ المأمونُ، بدا راسخًا، كأنه يعرفُ مـا صَرّحَ به ابنُ الشُحنة مُقَدَّمًا. لم يدرِ الحـاضـرون إن كان مُـحـيطًا فـعلاً بما أوقـعَ الشَك فى نفس ابنِ الشحنة، أو أنهم بإزاء عادة الملوكِ الذين لاَ يُبدونَ الدَهشةَ إزاء ما يسمعونَهَ من غرائبَ، وكأنَ إلمامَهم بكافّة شيء أمرٌ مَفروغ منه.

سأل بهدوء:

وماذا تطلب؟

التفتَ ابنُ الشُحنة إلى الهرمِ قبل أن ينطقَ:

أطلبُ قياسَ الأضلاعِ عندَ المنتَصَف.

أشارَ المأمونُ بيده:

«لك ذلكَ.. لكن اصحَبْ معكَ مَن يُجيدُ التَسلُّقَ»

جاءوا إليه بأحد العالمين، المُلمّين بـالدُروبِ الصاعدة، من عائلة تعيشُ على مَقُـربة تَخَصّص أفرادُهَا فى طلوعِ الأهرام. مَنذُ زمنٍ قـديم، إلى ما قبلَ مجيء العربِ إلى مصرَ، أمَرُ المأمونُ أن يترفق بابنِ الشُحنة، وأن يَدلّه ولا يكتُم عنهُ ما يعرف.

كان ابنُ الشُحنة فى الخمسينَ من عُمره وَقتئذٍ، قادرًا على الطلوعِ وإن على مَهَلٍ. كـانَ فريدًا فى بابه، ذائعَ الصيتِ بين المعنيّينَ بأمـورِ القياس، متمكنًا من أمره.

بدأ عندَ الضُحى، وعنـدَ الظُهر بانَت الدَهشَةُ على وجـوهِهم جميـعًا

عندما لاحضوا أنه يُكرّر ما يقومُ به، يغيبُ عن تَلك الواجهة ليظهر بحذاء الأُخرى، تململَ البعضُ، غيرَ أن المأمـون بقىَ راسخًا، لا يُظهِرُ تَمَلمُلاً أو ضَجَرًا، بل التفتَ إليهم مُهَدّئًا ومُطمئنًا.

اصبروا عليه.. الأمْرُ وَعْرٌ.

قبلَ الغروبِ مَثُلَ ابن الشُحنةِ أمامَـهُ. بدا مُرهَقًا تَعِبًا من بَذلِ المجهودِ، قالَ حائرًا، مُترددًا:

«يا أمير المؤمنين.. أخشى ألاَ تُصدِّقني..»

تطلّعَ إليه بوجهٍ هادئ، يعجزُ الأقربون عن إدراكِ ما يجولُ عندَه:

«قُل ما عندكَ..»

قال ابنُ الشُحنةِ القيَّاسُ:

«العَرضُ عندَ المنتصف مُماثلٌ للقاعدة.. لا يزيدُ ولا ينَقُص.

طولُ كلٍّ ضلـعٍ أربعـمـائـة ذراع.. يا مـولانا.. لا مـيلَ هناك ولا نقُصاًن..»

بعد لُحيظات سُكون، ردّدَ ابنُ الشُحنةِ:

«الأمرُ حَيْرةٌ.. الأمرُ حَيْرَة.»

جَهَرَ بعضُ الواقـفين بشكّهم، بدا قائدُ الجيشِ الذى بذلَ الهِـمّةَ وقَمَعَ الفتنةَ أشدّ جُرأةً:

«إنه كاذبٌ يا مولانا أميرَ المؤمنين. . يُريـدُ لعقولنا أن تُصدّقَ عكسَ ما نراهُ بأعيننا. . »

تطلّعَ ابنُ الشحنةِ إلى المأمون:

«واللهِ هذا ما وَجَدتُهُ يا أميرَ المؤمنين. . »

بدا هادئًا، كأنه يُصـغى إلى ما يتـردّدُ داخله، وليسَ ما يقولُهُ الغَـيرُ، نطقَ متُسائلاً:

«هل يُمكنكَ قياسُ طولِ الأضلاعِ عندَ القمة؟»

تطلّعَ ابنُ الشُحنة إلى الذُروة البادية، فى الليلِ خـلا إلى المأمونَ مقدارَ ساعةٌ، ثم مضى إلى مَوضعِ رُقادِه، غير أنهُ أرِقَ فلم يَنَمْ، لكنه مع شروقِ الشمس كان يمضـى عَبرَ المسارب الخفـية، البادية، يتقدّمُـه الدليلُ، مضى الوقت بطيئًـا، لكن المأمونَ لم يُبد ضَجَـرًا، حتى إذا نزل الليلُ. واندمجَ الأهرامُ فى العتمة، لم يُفارق مكانَه، بل يقولُ البعضُ أنه لم يُفارقِ سَرْجَ حصانه، أمـضى النهارَ التالى كلَّهُ يَرقُبُ طوافَ ابنِ الشُـحنة الدائمَ فوقَ، هناكَ فى أعلى نُقطة، حـتى إذا غَربت شـمسُ النهارِ الثالثِ ظـهرَ الدليلُ القديمُ، كانَ متعبًا، خائفًا، قالَ مُشيراً إلى القمة.

«فى البـداية لم أُصدّق مـثلَه. . لكننى اسـتوثقتُ بعـدَ أن أطلَعنى. . وعندما غابَ عنى لحظةَ دورانِه جهة الغربِ ظننتهُ تَعِبَ فمكَثَ ليستريحَ. . لكننى لم أرَه قطُّ. خَشِيتُ فجئتُ. . »

التـفتَ الخليفـةُ إلى قادة جُنده. وأقـرب صَحْبه، أمـرَ بإطلاقِ نَفيـرِ الرحيلِ، وقطـعَ المراحلَ بدونِ توقُّفٍ، وحَارَ الخَلقُ كلُّهم، مَنَ حـضروا، ومن قَرأوا فيما بعدُ أخـباره، ولكن لم يستدلّ إنسانٌ إلى شيء قاطع، مع كثرةِ التفاسير، وتعدُّد الروايات.

* * *

مَـــتنٌ خامس

نشـــوة

.. لأنهـا تحدّثت إلى كـثيـرينَ، معظمُـهم من العاملين فى المنطـقة، خفراءَ، باعـة، أدلاء، رجال هيئة الآثارِ، فلم يعرف أحـدٌ متى ولا كيف اتفقَتْ معه على دُخولِ الهـرم عندَ مطلع الشمسِ، كثيرون تمنّوا إناثٌ من شتّى أنحاء الدُنيا. مختلفُ مراحلِ العمر، تتنوعُ ملامحهن، وشخصياتهن إلا أن ظهورٌ تلك البُنـيّة مُغايـرٌ. هى أجنبيةٌ شكلاً، مـصريةٌ روحًا لخـفّة دَمها، وظُرفـها، وسُرعة بديهتهـا، وخُصُوصيّةِ دلالها، وأيضًـا.. إتقانها العربيـةَ رَغمَ أنها تعلّمتـها فى بلادها، لكنهـا تتحدثُ وكَـأنهاَ وُلدَت فى الجمَالية. وأمضَت عُمرها فى بولاقَ أو إنبابة!

ظهورُها اعُـتبَر فـيما بعـدُ علامةً، خـاصّة بعدمـا تردّدَ وصارَ يرويه القومِ، كانت شاهقةَ الأنوثة، سيسبانيةَ القـوَام، صفصافيةَ الشعرِ، فمها مـدخَلٌ ثرى، ناعمٌ، إلى عـالمٍ لا تَلُوحُ ملامـحـهُ، تمشى فى الأرض مَرِحةً، جوّالة، أفضَتْ لمن أصغَـوا إليها أنها تقوُم برحلة حولَ الكوكبِ وأنهـا خـصّصَت الـوقتَ الأطولَ للاطلاع على مـا تَضُـمّهُ مـصـرُ من عجائبَ، بالطبعِ أوّلُها الأهرامُ، تبدأُ بالأكبرِ، ثم الأوسط فالأصغرِ، ثم تمضى إلىِ الأقدم: أبو صيـر، أبو النُمرس، سَقّارة، دَهشـور، ميدوم. اللاهون.. لن تفـارقَ البـلاد إلا بعد المعـاينةِ. والفُـرجة، والمقـارنة، وتدوينِ هَذا كُلّه.

تعدّدَ مـراتُ ظُهورِها، يومًا بعـد الآخرِ شاعَت ابتـسامتُهـا، راجَ أمرُ حُسنهـا واشتَهَرَت ملامـحُها، تحدّثَ القـوُم. تجىء من وَسَط المدينة حيثُ تُقيمُ فى أحَدِ الفنـادقِ العتيقةِ التى يقـصدُها الأجانب متواضـعو الدُخولِ والإمكانياتِ.

قَسَمَاتُهـا تتضمنُ ترحيبًا دائمًا، لا تَصُـدّ أىّ ساعٍ، لم تكسف مخلوقًا أبدى لها ودًا أو إعجابًا، لكن. . لم يصـدُر عنها ابتذالٌ ما، ثمةَ شىء فى نظراتها، فى صـوتها، فى حضورهـا. يلوحُ فجأة فيـضعُ حدًا، ويوقِفُ الراغبِ فى اجتيازِ الحدود.

كلُ مَن شاهَدَه يتقـدَّمُها قبلَ شروقِ الشـمس باتجاه المدخل تمنّى لو أنه بديلٌ له، يسعى أمامَها أو بينَ يديها، تلكَ الفـارهةَ، الفيآضة، حديقة من الاستـدارات الفوّارة، تلغى حـضورَ مـاعداها، تفيضُ على الـكافة. هو مكتملٌ، من الأُصَـلاء الُمتمكنين، أبدى مهـاراتٍ أعجبت الجمـيعَ، كان رياضيًا متينًا مُتقنًا للألعـابِ اليابانية، حازَ فى سن العاشرة الحزام الأسود، كان وثيقَ الـصلِة بمن عملوا هُنا، مـصريين أو أجانب، ذائعُ الـصيتِ بين المهتمين.

كان وسيمًا، متّقدًا، صـريحَ الملامحِ، كأنه خارجٌ للتوّ من جدارِ معبدٍ لم تتغيـر ألوانه ورسومه، عُرف عنه تعفّفُـه وزهدُه فى الأجنبياتِ اللواتى يرغبن أحفادَ مَـن عاشوا هنا، ما تعرَّضَ له من إغـراءاتٍ ليس سرًا، بدءًا من التلويحِ بالإعـجابِ إلى التصـريحِ، إلى فرص عملٍ مُـغريةٍ فى الديار البعيدة، بل إن أكثرَ من امرأةٍ عرضن عليه عقود عملٍ صحيحة، إحداهن من أصلٍ عـربىّ تُقيمُ فى كندا وتمتـلك أرضًا، ومـحطاتِ بنزين، ومنزلاً على بحـيرة، ويختـًا يرسو فى خليجٍ، طلـبتْ منهُ أن يضعَ الرقَم الذى يريدُه. فقط. . ليصحبها ويكون على مَقْربَةٍ، لكنه أبى.

لأَمَهُ صَحبُهُ، تمنّوا لو أن ما عُرض عليه قُدِّمَ إليهم، لو أن الفُرَصَ التى

تسنح له واتتهم. وصفَه البعضُ بالغباء، وقال آخرون إنه ذكىّ، وهمس أحدهم: بل إنه يُخفى أمرًا، لكن لم ينل أحدٌ من رجولته، أو التفوّهُ بما يمكن أن يَمَسّهُ، تمناه آباءٌ زوجًا لبناتهم، وسعى تُجارٌ إلى ائتمانه على تجاراتهم، لكنه أخلصَ تمامًا لوصيّةِ أبيه، أن يسلك دربَه، وأن يتمَّ عملَه، ألا ينأى بعيدًا عن الأهرام.

.. كان عَطِرَ السيرةِ. يُخلفُ أثرًا طيبًا عند كُلِ مَن تكلّمَ إليه. أو سَمعَ منه، ضربَ بخطابَاته المَثَل، يقولُ القومُ: أكثَر مِن بريده، تُجارُ الطوابعِ طلبوا شراءَ ما يتلقّاه، لكنه أرجأَ الاستجابةَ إلى الوقتِ المناسب.

متى التَقَى بالهيفاءِ؟

أين تمّ الاتفاقُ بينهما؟

هذا مالم يعرفُه أحد.

أهو الذى سَعَى. أم هى التى اختارته؟

لا يمكن القَطعُ.

أولُ رؤيتهما معًا صباحَ ذلك اليوم، يتقدّمان فوقَ الأحجارَ الضخمة باتجاه المدخل، كانت ترتدى قميصًا أزرقَ وبنطلونًا أصفرَ، يبدو من خلاله حوافّ سِروالها، وحذاءً أحمر. يُؤكّد خفيرٌ قديم أنه سمعهما يتحدثان بلُغةٍ غريبة لا يعرفها، ولم يسمعها من أىّ أجنبىّ، إنه يُتقن الإنجليزية والفرنسية والإيطالية واليونانية والروسية وبعضًا من اليابانية.. لكن ما فاها به لا يَمُتّ إلى ذلك.

أما الخفيرُ الذى تسلّمَ تذكرتَها وقطعَها إلى نصفين فقال إنها كانت غايةً فى الألَق، تكسف المتطلعَ إليها وتُحرضُه أيضًا، أكّد نظراتِها الولْهَى إليه، لم تكن متطلعةً فـقَط إنما بَدَت مستطعمة، مـستمتعـة، أما هو فلم يَظهر عليه أىّ عارضٍ جديد، ربما هذا ما حَبّبَها فيه!

رواياتٌ شتّى تَقُصّ تفاصيلَ عديدة، يتّصل بعضُها بمصادرَ معينةٍ، لكن الجميعَ يتفقون على اجتيازهما النقبَ لحظةَ الشروقِ.

هو.. وهى فى أثره.

عندما انـحنَتْ قليلاً لتلجَ الدهليـزَ بانَت خطوطُ كينونتـها، مُـحكمةً، فاصلة، واصلة، مُؤثّرة، مُرجِفَة.

أوغلا فى الممرّ الأولِ الصاعـد، والثانى المائل، ثم.. ثم الثالث الذى لا وصفَ دقـيقًا لـه، إنما يختلف تقـديرِه من إنسان إلى آخـر، وتناثَرَت الإشاراتُ إليه فى كُـتبِ الأقدمين والمُحْدَثِينَ. بَقِى أمر، مُلغزٌ مُحـيّر تمامًا مـثلَ حـقـيـقـة «أبو الهـول»، أو أرصـاد الجنّ التى تحـمـى الكنوز الخبيئة، ومصادر الأذى الخَـفية التى تلحق بكلِ مَن هَتَكَ سِرًا يتعلّقُ بالموتى الراحلين، أو أتى بِفعل شائنٍ على مَقرُبةٍ منهم.

فتـحةُ الدهليزِ أو الممرّ أو ذلك الـباب الخفىّ لا يظهَر إلا على فـتراتٍ متـباعدة أو مـتقاربـة، يتكررُ ظهورُها فى أوَقاتٍ مـتلاحـقة، وربما تمضى سنّواتٌ لا يَسمع بها شخصٌ. دائمًا مسـدودة، جزءٌ من الجدران المُصَمّتَةِ، الحجرية.

مَن يَفتحها؟

مَن يُغلقها؟

ما هى الأسباب والعوامل؟

هل هى مستطيلة، مُربّعة، دائرية؟

لا أحدٌ يمكنهُ ذلك، حتى أولئك الذين أفْنَوا السنوات الطوالَ فى الدرسِ والفحصِ وجَسّ كُلّ حَجَرٍ وَدسّ أصابعهم فى الحُفَر والشُقَوق.

المؤكّد مما يرويه القومُ، أن قوةً هائلةً تندلعُ داخلَ الرجُلِ أو المرأة، درجةً من الرغبةِ لم يصفها أحد.

هل كانَ واعيًا عند اجتيازها؟

يقولون إن عبقَ البُنيَّةِ غطىّ على ماعداها عندهَ فلم يعبأ، حتى أنه أوغَلَ عبَر الفتحة بدونِ أن يدرى، لم يلتفت إلى الوراء، ولا اليمين، أو الشمال، إنما مَضى مُتأثرًا بمجَالها، وعندَ نقطةٍ معينة التفت إذ لَفَحَهُ دفؤها، لم يَرَ منها إلا عينين متّقدتين، نفّاذَتين، ناعمتين، تفيضان حيويةً على المحسوسِ كُلّه، اجتاحتهُ رعْدَةٌ مكينة، أما نسيمها الخاص، أَرَجُها الأنثوىّ فقد أوغَلَ وشَمَلَهُ وفَاتَهُ فَوْتًا استدارَ فَوقعت المواجهةُ.

كلها مُشْرَعَةٌ ناحيته، مُتأهّبةٌ له، كان مُستَقبلاً ومُرسلاً، منها وإليها، اتصل تطلعهما صوبَ بعضهما، شيئًا فشيئًا يسرى ما يُشبهُ الحليب الفاتر عندَهما، غمسَ كُلٌّ منهما نظراتِه فى الآخرِ، ثم.. صارَ التقدُّم.

حالٌ جديد، عليه وعليها أيضًا، مُغايرٌ تمامًا لكلِ ما عرفاه أو خبراه من تأججِ أو ازدهارِ رغبةٍ، متى جرى تجددهما، ثم بدأ امتزاجهما؟

تشاكلت أطرافُهما، لم يَعُد أحدهما مُلمًا بأصابعه أو يديه أو انحناءات الكتفين، ومصادرِ الرعشات والغمغمات، وتحسُّسِ اللسانين بعضَهما، تبادُلهمَا المواقع، بل إن مسامَّهُما بدأتْ تَتَشاكَلُ، جرى تكَوكُبُهما لحظةَ إيغالِ كلٍ منهما صوبَ الآخر.

ما مِن حَدّ للتصاعُد، لنموّ النشوةِ، لاتّقاد الرغبة، كافّةُ موروثهما من الصور واللَحظات والرؤى والأفكار يتلاشى تمامًا، لم تَعُد كينونتهما ذاتَ امتدادِ تحقّق فى الفائت، محتملٍ فى الآتى. . إنما صارت مندمجةً فى لحظةٍ غامضة، قادمة من منظومَة زمنٍ آخر لا عهدَ لكلٍ منهما به. لحظةٌ لا قبلَ لها ولا بعد، مبتوتةٌ، منقطعة، خارجةٌ عن أىّ سيَاقٍ معهود، لم يكن ثمةَ حَدٌ للارتواء عندهما، إنما اتقادٌ مستمر، متصاعد. ومثلُ هذا لا يُعرَف له مثيلٌ، ومِن ثَمّ يُعسرُ الوَصفُ ويصعُب.

تداخَلَت عناصرُهما، بدأ انصهارُهما يتحقّقُ مع عجزِ وجودِهما الجثمانىّ المحدودِ عن احتمالِ أو استيعابِ شَهوةٍ عارمة فاقَت كافَة الحدود، بدأت أطرافَهما تتحولُ عَلَى مَهَلٍ إلى لَونٍ أسودَ غامق مَشُوب بحمرة الوَقيد، ثم طالَ الأمرُ وعاءَ كلٍ منهما الجثمانىّ، تَذَرّى إلى ما يُشْبِهُ الرمادَ وإنَ لم يبدُ كذلك.

* * *

مَتنٌ سادس

ظِلّ

لسنوات رَدّدَ القومُ أخْـبَارَهُ، تناقَلُوا أمرَهُ، دَقّقَ البعضُ وَصـفَهُ وذِكْرَهُ، لم يقتصـر الأمْرُ على القُرَى والنجوعِ والكُفور المتقـاربة فى بّر الجيزة، إنما تجـاوزَ إلى إطراف شتّى، وأشـارَ إليه باحـثـونَ معنيـون، وصحـفيـون، ورحّالة، وقناصلُ أجانبُ يكتبون كلَّ كبـيرةٍ وصَغيرة فى تقاريرهم. المُتفَقُ عليه بـينَ الُرواة الذين عاينوهُ عن قُـربٍ أو تحدّثوا إليه أنه جـاء من مكانٍ بعيـد، لكنهم يختلفـوَن فى تحديده، فى تعـيينِ البلدة التى ينتمى إليـها. يقول بعضهم إنه كان فى الطريق من بلادِ المغرب الأقصى إلى مكَة قاصداً الحجّ، وأنه تخـلّى عن الركْب، خــرجَ منه، بعـدَ أن وقـعَ فى يده ذلك الكتابُ الذى لم يَّطلع عليه أحد، أو عندما جاءهَ الهاتفُ الخفىّ بما دَفَع به إلى الحَيْدةِ عن المسارِ وتغييرِ الوِجْهَة.

جاءَ من سَمَرَقَند!

بل خرجَ من بُخارَى!

لا.. المؤكّد أنهُ من خُوارزم.

فى كلِّ الأحوال ينتمى إلى الشـرق، ودخلَ البلادَ مشيًا على قـدميه، اقـتنع أصحـابُ الأمر أنه طالبُ علـمٍ، مَعْنىّ بما تَركـهُ الأوّلون من آثارٍ، قصـدَ الناحيـةَ الواقعةَ بين «أبـوصير» ودهشَـور، قُربَ الحدّ الـفاصلِ بين الخُـضـرة والصُفـوة، بين الزرعِ والَجـدْب، بين خـصـوبةِ الوادى وأبدية الصحـراء الساكنـة، أبدى اهتمـامًا بالهـرَم الواقعِ الجهـةَ البحريـةَ، يقولُ الأهالىَ إن هرمَ الجيـزة الأكبر يقـولُ له: يا أبى، إشارةً إلى قِدَمِ الأصـغرِ وسبقهِ، وتضمينًا غيرَ مُباشرٍ لما يؤكّده العاملون أن «سنفرو» والِد خوفو هو

الذى شيّدهَ. قِلةٌ أكّدوا أنه أبدى حنينًا إلى البحر بما يَعنى انتماءَه إلى إحدى البلاد الواقعةَ هناك. لكن، لم يتأكد ذلك. المؤكَدُ أنه غريبٌ عن مصرَ، أنه دَخَلَها دونَ العَشرين، أولَ مرةٍ شُوهدَ فيها كان فتيًا، عَفيًا، قادرًا على الَحفْرِ بمُفردِه وحَمْل أثقالٍ، وشقّ جِذْعِ نخلَةٍ ليُقيمَ منها ما يُشبه جُدرانًا وسَقْفاً يقيه شدّةَ رياحِ العراء ليلاً. لكنه لم يأوِ قط إلى هذا المكان نهاراً، ذلك أنه منذ طلّوعِ الشمس، بل قَبلَ إطلالة قُرصها يسعى إلى الموضعِ الذى حَدّدَه الكتابُ. أشارت إليه السطورُ وعينته الألفاظُ.

يلزَمُ. لا يتحركُ، إنما يتابع حركةَ الظلالِ حولَه بانتباهٍ بالغ وعينين يقظتينِ، متوقّعتين وصولَ ظلِ الأهرامِ إلى نُقطة معينةٍ من الأرض، يَنبتُ منها جِذعُ شجرةٍ قديمٌ لشجرةٍ بلغَتَ من العُمر حَداً مُتقدمًا، جذرٌ ذو ثلاث شُعَب، مُتَشبّتٌ باليابسة، نَخرٌ، من أغصانٍ نحيلةٍ متبقية تنبتُ فى أوقاتٍ معلومة وريقاتٌ خضراء، درجةٌ زاهيةَ، صريحةٌ من اللون.

كانَ دائَم التطلعِ إليه، طويلَ النظر، شديدَ القُربِ منه ليلاً، خاصّةً بعد امتزاج الظلال وانعدام الفروق فيما بينها.

لم يكُن ممكنًا الحديثُ إليه والاستماعُ منه إلاّ بعد تمامَ الغروبِ، فى النهارِ يظلُّ شاخصًا، لا يَحيدُ، لم يَرَه أحدٌ يأكُلُ. ولم تقع عين على بقايا قُربه حتى حار القومُ الذين بدأ نزولُهم على مَقربُةٍ منه وبنوا بيوتًا من اللَّبن أو الحجر، وشقّوا قنواتٍ صغيرةٍ من المياه أيامَ التحاريق، ونَزَحوا من مياه البحيرةِ التى تبدأ الامتلاءَ صيفًا وتترجرج فوقَ صفحتها الأهرامات الثلاثةُ المَتقاربة، المنعكسة. كانوا متخصّصين فى زراعة النخيل ورعايته. ومداواة

آفاته، وتلقيحه في المواسم، تقليمه، صعوده، جَمْع دموعه، عَدَدٌ كبيرٌ من النخيلِ عَلى حافّة الصحراء، كَان التمرُ ينبتُ، ينضُجُ ويَسقُط فَوقَ الأرضِ، لا يجد من يجمعه، إلىَ أن استقرُّوا وأبّدُوا وشاعَ أمرُهم. كان بعضُهم يمضى إلى أماكن قَصِيّةٍ لعلاجِ نخلة.

ولأنهم وفدوا فوجدوه عندَ المدّ الفاصلِ بين الوادى والصحراء، احترموا صمتَهُ وتحديقَه، ثم اعتقدَ بعضُهم فَيه، صارِوا يسعونَ إليه طلبًا للنُصْحِ، ثم البركِة، بشكلٍ ما عرفوا قَصدَه. وإن اختلف التصورُّ.

قالَ بعضُهم إنه ينتظرُ إشارةً، لن تظهرَ إلاّ له.. هو وليس غيرهُ، بعدَها يُسفُر الأهرامُ عن خبايا لم يسمع بمثلها أحد، ولابدّ أن خيراً سيطالهم، لذلك سَعَواَ دائمًا إليه، لم يصدّ أىّ إنسان قَصَدَه، كانَ بشوشًا، رقيقًا، ألُوفًا، عندَه يُسْرٌ، ليس عندَه نَفْرَةٌ من الآخرين، كلُ ما رَغبَهُ أن يطلبوه ليلاً، أن يَدَعوه وحيدًا نهاراً، لانتظاره الطويل، الممتدّ، يمكنُ أنَ ينتهى فجأةً، فى أىّ لحظة.. عندما يحيدُ ظلّ الأهرام عن مساره، يتصل بتلك النقطة. عندئذ تتكشّفُ له الأسرارُ كافة، أُسسُ العلوم، ومفاتيحُ الرموز، يمكنه الدخولُ إلى ما استعصى على البشرِ كافةً، الوصولُ إلى ماطالَ عليهِ الأَمَدُ مخفِيًا، مستوراً، ما عَسُرَ كَشفُهُ على الخلقِ.

كان يتداخَلُ فى بعضه إذا اضطُرّ إلى مجالسة، خاصةً إذا جاءهُ كبيرٌ من القومِ وأظهرَ له التواضُعَ والرغبَةَ فى القُربَى تَبرُّكاً أو سعيًا، كان ـ يحفظُ بلسانه، وعَيْنَى ذاكرته تلكَ السطورِ التى اطّلَعَ عليها منذُ زمن،

وعلى مسـافةٍ نائية، أصغَى إلى كَـافةِ ما يترددُ عن الأهرامِ، سـواءً صَدَرَ ذلك عن مُتخصّصين، قاسوا الارتفاعـات وأحصوا الأحجارَ واختبروا مَيْلَ الزوايا، أو الأهالى الذين احتفظَت ذاكرتُهم بوقائع بعضُها حقيقىّ والآخرُ مُتَـخَيَّل. بَدْءًا من وصفِ ملامحِ الحـرسِ الخفىّ الذى يدفع كل أذىً، إلى الطلاسم التى تحـمى المبانى الـقديمة من أخطارٍ شـتى، إلى ما يتـردد عن وجود أحياء يسعـون ويعيشون حيواتهم فى عوالم مضيئـةٍ، فسيحةٍ داخل الأهرام، يتناسلون، ويجيئون ويرحلون، وأحـيانًا تقعُ حروب بينهم، وما تلك القرقعـات المنبعثة أحيـانًا إلا بعضُ أصدائها، إلى مصـيرِ كل عابثٍ وعابـثة داخل الأهرام، ألَمْ يعـثروا على شـاب وشابةٍ فى الأكـبر وهمـا مُتفحّمـان تمامًا، قالوا إنهما بعدَ شُروعهـما اندلَعتْ نيرانٌ لم تبق على ما يَدُلُّ عليهما، ومثلُ ذلك جرى فى الأزمنة المختلفة. إلى الحديثِ عن أنهارٍ تتـدفّقُ فى مكانٍ مـا داخلَ الأهرام وشـطآنٍ حـافلةٍ بكل نبـاتٍ غـريبٍ، جميل..

كانَ يسـمعُ، وكانوا ينظرونَ إليـه، اعتادوه، ومع مَـرّ السنوات أصبحَ جُزءًا من ذاكرة الذين وُلدُوا وشبُّوا ونَمَـوا فى تلك الأنحاء، استمرُّوا على ما أبداهُ أجدَادُهم وآباؤهـم، احترامهُ والتّبَرُّكُ به والخشيةُ بشكلٍ ما منه.

لم يتحرّك من مَوضعه، لم يَحتَمِ إلا بجذوع النخيلِ التى شَقّها وسَوّاها وعالَجَـها بيديه، وعندمـا حَلّ به مَرَضٌ زحفَ إلى شجـرةٍ عتيـقة ورضعَ جِذعها بعد أن أَوْلَجَ فيه ما يُشبه المِسْمَارَ.

كان دائم التطلُّع إلى السماء، إلى الهرم، إلى الجذورِ المُطلّة من التُربة،

إلى نقاطٍ شتّى لا يُمكنُ تعيينُهـا. ربما الجهة التى قَدِمَ منهَا، أو. . لإدراك المساراتِ غـيرِ المرئيةِ المؤثِّرةِ على حـركةِ الظلالِ وانتقـالِها، وانتمـائِها إلى الأصولِ.

فـوقَ تلكَ البقـعةِ من الأرضِ كَـرَّتْ عليـه أيامٌ وليالٍ، رأى تحـوّلاتِ الضوء: أصغَى إلى تتابُع دقاتَ قلبه إذ يُسندُ رأسَه إلى ذراعه عندما يسعى إلى إغفاءَة، يرصُدُ ما يجرِي داخلَه، يُحاولُ التَعرُّفَ على ماَ يجرَى عندَه. فى لحظةٍ ما أدركَ أن التتابُعَ الـقادِمَ من ماضٍ بعيدٍ قد لَحقَـه تَغَيُّرٌ ما، أن دَفْقَ الدمَ يتعثرُ أحيانًا. . لم يَعُد قادرًا على الخطوِ بالإيقاع نفسِه. اتّخذَ من جريدِ النخلِ عَصًا يتوكأ عليها حتى يمكنه المشىُ حولَ الأهرام بعدَ الغروبِ مُباشَرَةً. كان ظهورُه مُثيرًا للصـغار، مُلفتًا للكِبار رغمَ مُضى المدّة واعتبارِه جُزءًا من المرئياتِ الطائفة.

بقدرِ ما كانَ يقتربُ من الأهرامِ بقدرِ ما كـان يَعى بلوغَهُ نقاطًا مُتقدِّمة فى الوقت، أنّ ما فـاتَ كثيرٌ. . كـثير، وما بقِيَ قليلٌ. . قَليـل، غيرَ أن يقظَتَـه لم تَهِن، وَحـدّةُ وَعيـه لم تَحـدْ، كان يرقُبُ حُـلولَ تلكَ اللحظة المدّونة، الموصوفة بـدقةٍ والتي لم يَعُد يُميّز إلاها رغمَ أنـها لم تحل بعدُ، عندمَـا يَحِيـدُ الظِلُّ عنْ مَسـارِه الأبدىّ، حتـى يتّصلَ بتلك البُـقعـة من الأرضِ، عندئذٍ. . .

لا يعرفُ إنسـانٌ كيف أدركَ القومُ حقـيقةَ ما جـرى، ما تناقَلُوه أزمنةً طويلة، لكن المُعَمَّـرين منهم يَذكُرون جَـعيرُه الهـائلَ الذى خَضّ الأطفالَ وأرجَفَهم في سائر الأنحاءِ القريبة، وألزَمَ الحيواناتِ والدوابَ أماكنِهَا.

اللحظةُ المتوقّعةُ مرّت، لم ينتبه إليها.

كيفَ؟

كيفَ وكينونتُه كلُها مِحورُها التوقُّعُ، والحذر؟؟

اللحظةُ لم تَحِلّ نهارًا، إنما امتدّ الظِلُّ ليلاً.

كافـةُ توقعاته، وحـساباته جرَت على أسـاسٍ أنّ التحقُّقَ النادرَ المثـيرَ سـوفَ يَتم نهارًا، وهل تُـولَدُ الظلالُ إلا منَ الضوءِ؟ غـيـر أنّ ما جَـرَى عكس ذلك، فَللقمـرِ والنجومِ قُدرةٌ على بَثّ الَظِلالِ. صَحـيحٌ أن القمرَ كانَ غائبا تلكَ الليلة. غيرَ أنّ النجـومَ تتوالدُ عند حافةِ الصحراءِ وتفد من سائر أنحاءِ الكون.

هكذا.. مالَ ظلُ القمـة المدبّبة، النهاية الفانيـة فى الفراغ، اتّجهَ على مَهَل صوبَ جُذورِ الشجرة القديمة، المتشبّثة، هكذَا.. تحَقّقَت اللحظةُ ولم يشهَدْها إلا طائـرٌ غريب، وحيدٌ مهـاجرٌ من بعيد، طليـعةُ أسرابٍ تَحُطُّ منهكةً فى مثل هذا الوقتِ كلّ عامٍ، لم تَصل بعدُ.

عندما اسـتيقظَ تطلّعَ إلى الهـرمِ، إلى الأرضِ، إلى الجذورِ التى بَدَت كأسنانٍ خَربَة. إلى الفضاء، إلى الـغربِ، إلى الشرقِ، إلى الشمالِ، إلى الجنوبِ، إلى الفوقِ، إلى التحت.

كيف أدركَ؟

لا يدرى أحد.

كيف استوعَبَ؟

لا يعــلَمُ إنســان .

لَزِمَ عمرَهُ كلَه ولم يَحد، وعند التحـقُّق نالَ المأمولَ ما لن يَعيه، ما لن يُدركَ حَـقيـقةَ مـا استـوعَبَ إلا بعد فَنـاء كلِ الطيور وبقـائه إلى الأبد، مُحومًّـا، مُغادرًا، وَاصلاً، مُقلعًـا، حَاطًا، ولكنَ. . من يُدركُ ريشةً من جناحه سيبقى مثلَه، سينتَقلُ إليـهِ ما استقرّ لَهُ، ولكن. . كيفَ الاستدلالُ عليه؟ وأينَ؟ وبأى لُغةٍ؟

وكيف يكفى ما تبقى؟

لهذا كان صُراخُه، جَعِيـرُه فى مواجهةِ الأهرامِ ضَاريًا، لم يسمع القومُ مثلَه، لا مِن قَبلُ. . ولا مِن بعدُ.

* * *

مَـتنٌ سـابع

ألــق

كَفَّ

توقَّفَ

ما يراهُ لم يسمعَ عنهُ، لم يقرأ ما يَدُلُّ عليه، بقدر ما فُوجِئ، بقدرِ ما شَعَرَ براحـةٍ غامضة لا يمكِنُ القِـياسُ على مثيلٍ لها، أو مـضاهاة اللحظةِ بأخرى مُنقَضِية.

كانَ قادمًا من الشرقِ إلى الغرب، من تحت إلى فـوق، صاعدًا الهضبةَ بمحاذاة نقطة غير مرئيةٍ تتوسّطُ الفراغ الفاصِلَ بينَ الهرمِ الأكبرِ والأوسَطِ.

ظهيرةٌ شِتويةٌ سيّالة، لكن. . هـذا الضوءُ البرّاقُ، المنصَهرُ لا علاقَة له ولا صِلَةَ بالشـمسِ البادية، لم يَـدرِ مصـدَرَه بالتحـديد، ربما من داخله، لكنه لا يُشبه ذلَـك البريقَ الحادّ، الساطعَ، المُنبئ بنوباتِ الصُـداعِ الموجعة التى جاءَ بها إلى الدنـيا، أقدَمُ صُوَرِ عُمره مـرتبطةٌ بالأمةِ، لاَ. . هذا ألَقٌ مغاير، لهُ المفاجأة والاستمرارية.

هل يَصْدُرُ من جِهَةٍ؟

إذن. . كيف يُمكنُ تحديدُه بالمسافةِ الفاصلة، لا يمتدُّ بعدَها، ولا ينقُصُ قبلَها، ولا يشملُ ما يتجاوَزُ ارتفاعهما، رَخيمٌ، نفّاذٌ. نزيح الفراغَ ذاتَه.

خَطَر له إمكانيـةُ القِدَم، يمُتّ إلى زمن عتـيق، تمامًا مـثلَ الهواء الذى تأهّبَ القومُ لاستنشاقه عَندَ فتحِ مقـبرة مَركبِ الشمسِ المكتَشَف، غيرَ أن هذا الألقَ لا يمكنُ تعـيينُهَ بمكانٍ أو مسـافةٍ أو توقيـتٍ زمنىّ. لا بُعدُ، لا مضمونُ، لا كلماتٌ يمكَنُ أن تُستَوعَب.

طَلِيقٌ.

مُرسَلٌ دائمًا.

راحةٌ تشـمَلُه لم يعرفـها، مع وعـدٍ غامض بالوصـول، مع استـمرار التحديقِ تلُوحُ خُضرةٌ، درجةٌ من الخصوبةِ الريَّانة لم يعرفها من قَبلُ، هو المُغْرَمُ بالألوانِ ودرجاتها ومـتابعة تحوّلاتها وحَفْرها فى الذاكـرةِ المتماهية. هذا أخضر غزير، درجـةٌ واحدة لا تَهن، لا تَضعُف. يانعَةٌ، لم يَرَها فى أوراق الأشجـار، فى نباتات البـلادِ التى رحل إليهـا وطوَّفَ بها، أو فى جذوعِ الصبّار المتقن لأنواعها وفـصائلها، أو زراعاتِ الأُرْز المغمورة بالمياه بين القُرى الواقعةِ على الطريقِ إلى مَسقَط رأسه.

خُضرةٌ ضوئية، لا تؤثّر عليهـا الظلالُ، لا تتغيّرُ بحوافّ الأهرامِ، هل يَصدُرُ الألَقُ من داخلهما؟

السطوعُ أوقَفَه عن المضىّ، عن الخطوِ، بل إن الدهشةَ راحَت تتوارَى. والتساؤلاتُ تختفى، والحيوات تُمْحىَ، لانَت رقبتُه فى مواجهةِ الاستقرار الوافد، والراحة النابعة.

يتأهّبُ للمضىّ، للخطوِ، فالوعودُ بلا حَصْرٍ.

يخطـــو.

تخرجُ قـدمُه من قـدمه، وينفصلُ ذراعُـهُ عن ذراعه، ويفـارقُ صدرُهُ صدرَهُ، لم يكنِ باستطاعته أن يـظلّ مُعلّقًا، نصـفُهُ في صورةٍ جَـسَدية، والنصفُ فى هيئة لم يعهـدها من قبلُ، فراغٌ ما بينَ البنائين يرسُمُ الشّكلَ المحسوسَ عَيْنَهُ، لكنه ليس هو، يؤكّدهُ وينفيه. هذا حالهُ.

رحلَ عن رحيله، لم يكن قادراً على التطلُّع إلـى الوراء ليعرفَ ما جَرىَ له. يتـقدّمُ مَـدفوعًا، مـحَمـولاً. سابحًا فى كـينونةٍ بلاَ أُطُر، مُصَاغًا من الضوءِ والخُضرةِ، مُرتقيًا إلى تلك النقطةِ عندَ الذّروة بدونِ صُعود.

* * *

مَـتنٌ ثامــن

صَـمْت

خرجَ إلى السطحِ، الليلةُ الأولى فى البيت الصغيرِ القائمِ قُربَ الصحراء. كلّ ما يحتويه صاغَهُ بيديه، وكـما يرغَبُ، حتى البناءِ البسيطَ أشرفَ عليه، وأضفى، لم يتـرك شيئًا للآخرين، تـلكَ هى اللحظاتُ التى سعى من أجلِ تحقيقها منذُ بدءِ تردُّده على الموضعِ الضـاربِ فى العتاقة، بزراعاته، ونخيله، وقنوات الميـاه، والجسـور الصـغيـرة وخَطّ الأُفق الذى تحـدُّهَ وتشكّله ثلاثةُ أهرامات متقاربَة، اثنان شبهُ مكتملان، والثالث خَربَ، لكنه لم يَفقد هيئته، كلُ ما فى الأمرَ أنه غـيرُ متساوى الأضلاعِ. سمعَ أهَالى النـاحيةِ يقولونَ إن من بَنَى الثلاثةَ أشقَاءٌ متقاربون، وإن أصـواتًا تُسمَع أحيانًا لا يمكن تفسيرُها، ولكنها لغةٌ للخَطاب بين مـا يُخَيَّلُ للقومِ أنهُ جمادٌ صامت، وأحـيانًا، يتقدّمُ هَرَمٌ ليَـحُلَّ مكانَ الآخـر، وأن لكلٍ منهم رصـدًا خـفيًـا، يحـمى المكنونَ المصونَ، ويمنعُ وقوعَ الفاحَشـةِ بالداخل، وهل غابَ أمرُ ذلك الشابِ وتلك الشابة، أوغلا حتى نقطة بعينها، اتّقدَت رغبتهُما وعندما تأهّبا تَفَحّما، تحوّلا إلى رماد، أمَّا من يقـدرُ على فكَ طلاسمِ تلك الكتابةِ فتـتفتّحُ له دروبٌ لم يعرفها أحد مِن قبلُ. ولـم يَطرُقها بشرٌ.

يتأمّلُ النجومَ.

يشمُّ رائحةَ الأرضِ العـتيقـة، يحاول الإصغـاء إلى أصواتِ الليل، أن يتعرّفَ عليها حتى يألَفَها، يتعايشُ مَعَهَا.

ما هذا؟

يَتجـهُ ببصرهِ إلى الغرب. . يُـحَدّقُ، لا يَحيدُ، ولا يَمِـيلُ، ولا يقدرُ على النُطقِ أو حتى. . إبداءِ الدهشة.

* * *

مَــتنٌ تاســع

رَقصَـــة

نقطةٌ ما . .

ما بينَ المشرقِ والمغرب .

تبدو لمن صبَرَ وحاولَ وجاهدَ وأفَنى فتمكّنَ، لا يَحَيدُ موعدُها، يكونُ ظهورُها مع اندلاع تلك الموسيقى القادمةِ من اللامنبعِ، من حيثُ لا يمكنُ التعيينُ أو التحديدُ.

لا يراها إلاَّ مَن أُوتىَ القُدرةَ على احتمال الحنين والشجن وكَتْمِ الزَفرة، وعلى قَـدرِ المجاهَدَة يكونُ وضـوحُ الرؤية، حـتى لِيُمكنُ لذوى التـمكُّنِ الإحاطَةُ بملامحهَا الملكيّةَ، والنفاذُ عبرَ انفراجةَ شفتيها، والإيواءُ إلى رُكْنَىَ عينيها الشاخصتين أبَدا إلى مَوْضعِ مغيب الشمس.

أنغامٌ نابعةٌ منها، مُحيطةٌ بهـا، يصعُبُ تَشخيصُها، لا هى وتريّة، ولا هوائية، ولا نُحاسيّة، مع اكتمالِ إيقاعاتها تتمايلُ الجهاتُ الأربع، تتقارَبُ حوافُّ الكونِ، ينتظُم دَوَرانُ الأفلاكِ العُلى.

لا يمكنُ تشخيصُها. فليسَت المقاماتُ عربيةً، أو إفريقية أو فارسية، إنما تشملُ هذا كلَّهُ، أبرَزُ ما فيها حنينٌ مُمضٌ. مُمتَدّ.

مَنْ يثابر يُمكنُه رؤيةُ ارتقائها الفراغَ بقَوامها الفارهِ الجلَلَ، يُطالع أنوثتها الكونية، تلك التى حَاولَ النّحاتُ العاشقُ، العـابدُ أن يُبرز بَعضًا منها فى تمثالها البادى.

مَن يُخلصُ النيّةَ باسـتطاعته رَصْدُ بداية رقـصتها، تصاعُـدها إذ تَبْسُطُ خطوطَها وتُلملمُها، تَفردُها وتثنيها، عندما يضبطُ جسدُها النغَمات، يُبْرِزُ

الإيقاعاتِ، يَبُثّها إلى أقَاصى الوجودِ. يَشهدُها كلُ ساعٍ فى طرِيقه، وكلُ مُقيمٍ فى منزله، شرطَ أن يتّجه بكُلّيته صوبها، إذ يدنو المغيبُ على اكتمال يبدأ دَوَرانُها، يتسارَعُ حتى لَيَصعُبَ على النظرِ الإنسانى إدراكُها. تتحّولُ إلى نقطةٍ، إلى أُفولٍ لاَ مفَرّ منه ولا إدراكُ.

* * *

مَتنٌ عاشـــر

وكَأنُهم على ميعاد،

وإن باعَدَت بينهم الآماد.

* * *

مَـتنٌ حادى عشر

البدايةُ نُقطة،

والنهايةُ نُقطة.

* * *

مَـتنٌ ثانی عشر

عِندَ الذُروةِ. . يَقَعُ الفَناءُ.

* * *

مَـتنٌ ثالث عشر

كلُ شيء.. مِن.. لا شيء.

* * *

مَـتنٌ رابع عشر

لا شيء

لا شيء

لا شيء

* * *

المحتـــويات

* مَتنٌ أول تَشوُّف ٥
* مَتنٌ ثانٍ إيغَال ٢٧
* مَتنٌ ثالث تَلاَشٍ ٤٩
* مَتنٌ رابع إدرَاك ٦٣
* مَتنٌ خامس نَشوةٌ ٧١
* مَتنٌ سادس ظلّ ٧٩
* مَتنٌ سابع ألَق ٨٩
* مَتنٌ ثامن صَمْت ٩٥
* مَتنٌ تاسع رَقصةَ ٩٩
* مَتنٌ عاشر ١٠٣
* مَتنٌ حادى عشر ١٠٧
* مَتنٌ ثانى عشر ١١١
* مَتنٌ ثالث عشر ١١٥
* مَتنٌ رابع عشر ١١٩

رقم الإيداع ١٨٠٣٨/ ٢٠٠١
الترقيم الدولى 2 - 0778 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة ٨٠ شارع سيبويه المصرى - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧٠ (٠٢)
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)



الرواية الأخيرة لجمال الغيطانى «متون الأهرام» تجربة مثيرة وجديدة فى الكتابة السردية، تُقارب روح المكان وعطر الثقافة المعتقة، وتتخذ أشكالا فاتنة لم تُفترع فى القصّ العربى بهذا الإيقاع الشعرى من قبل، حتى إنها تخالف نهج الغيطانى الذى اعتدناه فى ظاهر الأمر، وإن كانت فى الحقيقة تظل تلمّسا لخفايا تلك العلاقة الباطنية الحميمة بين الإنسان والمكان، عبر سحر الزمن وخلال تضاعيفه، ترتفع على اليومى المبتذل فى الواقع المنظور؛ إذ تتخذ منه - على وجه التحديد - نقطة انطلاق تحفر بعدها فى الذاكرة، لتبنى وعيا حادا بمنابع الفن والحكمة فى ظواهر الوجود. تبدأ من السطح كى تجرحه وتسيل دمه شعراً دافئا وفكراً حاراً متدفقا، مما يجعل هذه التجربة - على وجازتها - إضافة فى وسائل مشارفة الأسرار الكبرى للحياة المصرية، كما تتجلى فى الرموز الباقية فى المكان، المتحدية للزمان.

د. صلاح فضل

على الغلاف
لوحة للفنان
حلمى التونى

دار الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨٠٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)